الإنساني 32

8 مايو/آيار
يوم الصليب الأحمر والهلال الأحمر

العراق: 25 عامًا من عمل اللجنة الدولية للصليب الأحمر

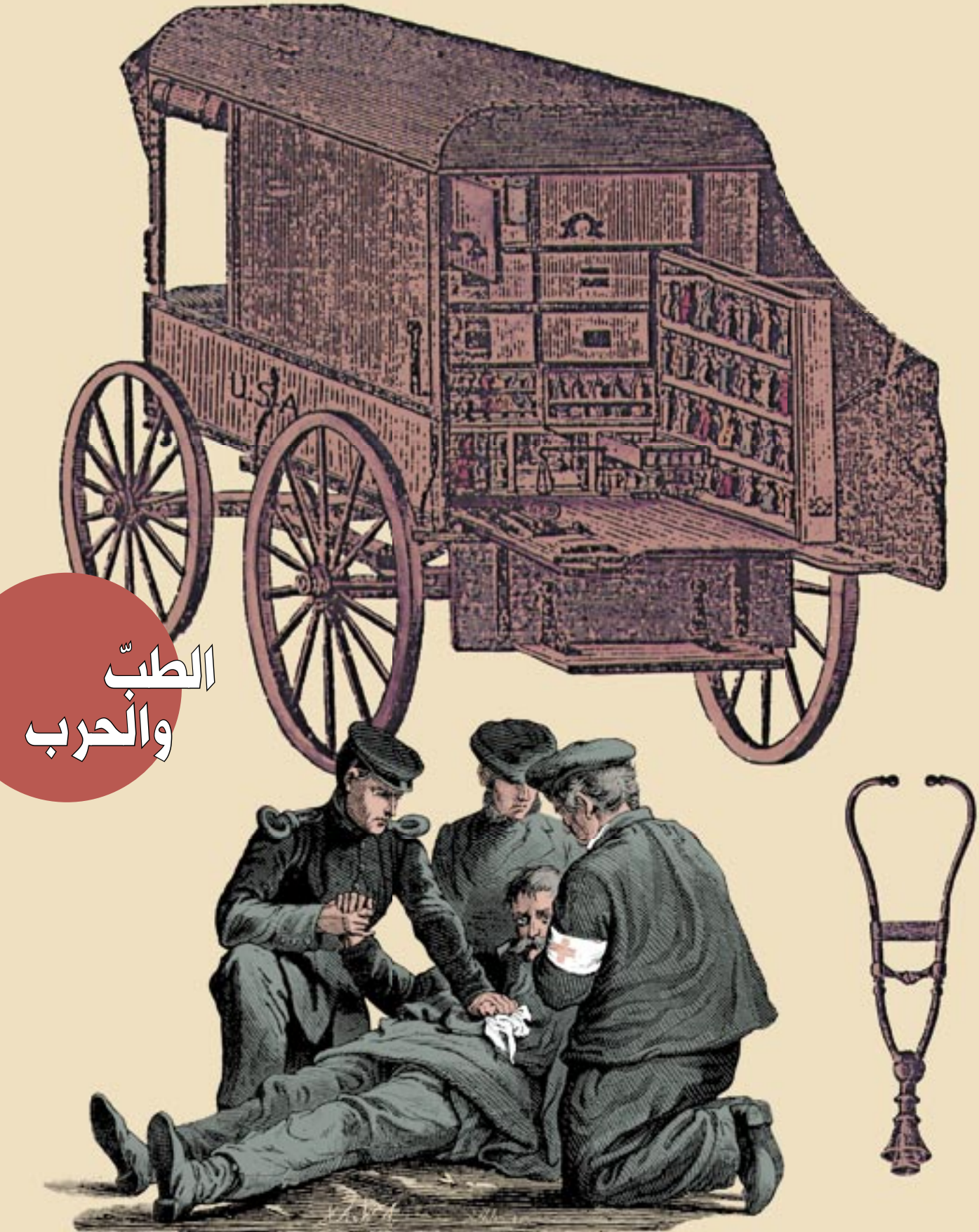

الطبّ والحرب

تصدر كل ثلاثة شهور عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر
ICRC
غير مخصصة للبيع
العدد الثاني والثلاثون
صيف 2005

كاريكاتور

الرسم: **سليم** [الجزائر]

الثامن من مايو وكرامة الإنسان

"**في** هذا اليوم، نحتفل بكل اعتزاز وفخر بما يقدمه المتطوّعون من جهد جهيد في كل أرجاء المعمورة، فلم تكن شجاعتهم وتفانيهم سوى تعبير قوي ومؤثر عن التزام حركتنا بحماية كرامة الإنسان".

وردت الفقرة السابقة في البيان الذي أصدره رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر، ورئيس الاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر بمناسبة الاحتفال باليوم العالمي لحركة الصليب الأحمر والهلال الأحمر.

والمتابع لما يجري في المجال الإنساني يجد أن موضوع حماية الكرامة الإنسانية كان الشغل الشاغل لكل جهود العمل الإنساني، منذ نشأة هذا العمل وإلى وقتنا هذا. وهي جهود بذلت وتبذل كل طاقتها في سباق غير متكافئ، للأسف الشديد، مع ما تواجهه البشرية من انتهاكات في نزاعاتها وحروبها، ومع ما صار منتشرا، من أوضاع تهدر الكرامة الإنسانية في سياقات عديدة.

فحماية الكرامة الإنسانية في خضم هذه النزاعات والحروب تتطلب بالتأكيد توفير كافة الضمانات والإمكانيات التي تدعم مسيرة العمل الإنساني المحايد والمستقل، وتكفل له الوصول إلى الضحايا بغير تمييز. ومن أجل الوصول إلى ذلك الهدف لابد من تحقق إرادة على أرض الواقع تؤمن بأهمية العمل الإنساني وضرورته لدى جميع الأطراف.

لكننا صرنا نشهد منذ فترة ليست بالقليلة أوضاعا من شأنها خلق الصعوبات التي تقف في وجه هذا العمل للتقليل من حيزه وتضييق الساحة عليه، وهي الحالة التي استحكمت أكثر من ذي قبل مع تفاقم سياسات الاستقطاب التي عمت الساحة الدولية في حقبة الحرب على الإرهاب.

في منطقة الشرق الأوسط على سبيل المثال، بلغت هذه الصعوبات حدًا تسبب في خلو الساحة العراقية، تقريبا، من أي تواجد للعمل الإنساني المستقل، الذي يؤمن الحماية لكافة الضحايا، مع علم الجميع بأن العراقيين الذين يعانون، على اختلاف أطيافهم، من وطأة الانتهاكات، أشد ما يكونون حاجة للتواجد الفعال لهذا العمل.

إنها معضلة على الجميع أن يسهموا في حلها، فوجود العمل الإنساني في ساحة النزاع لا يتمثل معناه في تقديم الحماية للضعفاء فحسب، وإنما يتمثل قبل ذلك في أهمية وجود هذا الطرف الإنساني المحايد للتخفيف من حدة الفوضى، وزرع الأمل في النفوس، من خلال العمل على تطبيق القانون، وتنبيه الجميع بأن الحرب لها حدود وقواعد لا يجب تجاوزها بأي حال من الأحوال.

في زمن آخر غير هذا، وقبل نشأة الصليب الأحمر، كان الهاجس الأساسي لهنري دونان ورفاقه هو التوصل إلى مجموعة من المبادئ السامية التي يتوافق الجميع على القبول بها والتعاهد على الامتثال لقواعدها لتجاوز مآسي المحنة التي صارت ظلا لوجود الإنسان على الأرض، وهي محنة الحرب.

وكان الشرط الأساسي لتطبيق هذه المبادئ هو النص على حياد واستقلال الطرف الثالث غير المنخرط في الحرب، وهو الطرف الذي يمد يده للجميع، أي الصليب الأحمر، الذي كان يمثل بالنسبة لمؤسسه رمزا لإرادة فعل الخير المتواجدة لدى جميع الناس.

وبالعودة لمستهل هذه الافتتاحية، وفي مجال آخر غير مجال الحروب والكوارث التي من صنع الإنسان، حق للحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر هذا العام أن تفخر وتعتز بما أنجزته لمواجهة الكوارث الطبيعية، وهو إنجاز ما كان ليتحقق لولا هذه الفيالق الجرارة من المتطوعين الذين تمثلت فيهم إرادة الخير.

فهل لهذه الإرادة أن تنتصر مرة أخرى لإنسانيتنا بتعبيد الطريق من جديد أمام العمل الإنساني المستقل، ليقوم بدوره المطلوب في العراق وفي كل بؤرة من بؤر الحرب التي يشهدها الكوكب ■

"**الإنساني**"

الإنساني

تصدر كل ثلاثة شهور عن
اللجنة الدولية للصليب الأحمر

المدير المسؤول **تمارا الرفاعي**

مدير التحرير **محمد سيف**

مستشار التحرير **عنايات فريد**

المستشار القانوني **د.عامر الزمالي**

المراسلات : 31 شارع جدة، حي المهندسين، القاهرة 12311
تليفون 7619332 • 3379282 فاكس 7618487
البريد الإلكتروني: csc.cai@icrc.org

الآراء الواردة بهذه المطبوعة لا تعبر إلا عن وجهة نظر أصحابها

ICRC

اللجنة الدولية للصليب الأحمر منظمة مستقلة محايدة، أنشئت عام 1863. مهمتها إنسانية بحتة، تتمثل في حماية أرواح ضحايا الحرب وكرامتهم وتقديم المساعدة لهم. تقوم اللجنة بتوجيه وتنسيق أنشطة الإغاثة التي تنفذها الحركة الدولية للصليب والهلال الأحمر. وتعمل على ترويج وتدعيم القانون والمبادئ الإنسانية العالمية.

32
صيف 2005

تحية له في ذكراه 05
الرفق في ميادين القتال 08
صور من تاريخ العمل الإنساني 10
الجمعيات الوطنية العربية في الثامن من مايو 14
العراق: 25 عاما من عمل اللجنة الدولية 20
مشاهد من رحلة إلى بغداد 22
العراق: عامان عصيبان في تاريخ العمل الإنساني 26
صناعة الأطراف والأمل والابتسامة في المُكلا 30
السودان: المحكمة الجنائية الدولية 36
جراحة الحروب: من طب العسكر إلى عسكرة الطب 37
أعراف الحرب ومبادئ الشريعة الإسلامية 46
شرخ في حاجز زجاجي 48
خبز الموت 50
تفاح الشام 52
أركان العالم 53
بلا رتوش: شظايا منغرسة عميقا في النفس 56
إصدارات 58

تركيب مجسم يمثل هنري دونان جالسًا إلى مكتبه، وخلفه العبارة التي دعا فيها للتوصل إلى مبادئ تحترم من قبل جميع المحاربين، وإنشاء جمعيات إغاثة للجرحى في كل البلدان.

[متحف الصليب الأحمر بجنيف]

في الثامن من مايو من كل عام، تحتفل الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر بمولد مؤسس وراعي الصليب الأحمر المواطن السويسري "هنري دونان" الذي تمكن في شهادته التي قدمها حول موقعة "سولفرينو"، من صدمة الرأي العام الغربي بهول الأثر الذي تخلفه الحرب الحديثة على البشرية.

تحية له في ذكراه

كانت معركة سولفرينو (1859) هي إحدى حلقات قيام "الدولة ـ الأمة" في أوروبا، دارت رحاها في إيطاليا الممزقة إلى دويلات محتلة بالنمساويين، وقام فيها نابليون الثالث بإنفاذ حملة قادها بنفسه، فتصادمت فيها أعتى الجيوش الأوروبية حينذاك، وتحقق بها للإمبراطور الفرنسي انتصار باهظ الثمن، إذ فقد الحلفاء أكثر من مائة وسبعين ألفا من الجنود والضباط بين قتيل وجريح، وجرى بها التحام مباشر، وصفه دونان بأنه: "رهيب ومروع، بين النمساويين والفرنسيين، اشتبكوا فيه جسما مع جسم، وداسوا بعضهم البعض بالأقدام، وتقاتلوا فوق الجثث الدامية، مستخدمين في الضرب كعوب البنادق، فتحطمت الجماجم، وبقرت البطون بالسيوف والحراب، واختفت الرحمة، •••

Al-Insani ♦ Summer 2005

••• وتحولت المعركة إلى مجزرة حقيقية، وصراع وحوش كاسرة هائجة أسكرتها الدماء"

لم يكن دونان واحدا من المقاتلين في سولفرينو، فكما يقول: "كنت مجرد سائح غريب تماما عن تلك المعركة الكبرى، وظفرت بفرصة نادرة نسجتها لي ظروف خاصة مكنتني من أن أكون شاهد عيان لتلك الأحداث المؤثرة، فقررت أن أحكي وقائعها". ولم يكتف الرجل بوصف المعركة، وإنما تقدم باقتراحات تستهدف أمرين: أولهما أن تنشأ في جميع البلدان "جمعيات تطوعية للإغاثة" تقدم العناية بالجرحى في وقت الحرب، والهدف الثاني هو أن يصاغ "مبدأ دولي، تعاقدي ومقدس" يكون أساسا وسندا لجمعيات الإغاثة.

سابقة فريدة

كانت هذه المبادرة سابقة لا نظير لها لإنشاء كيانات عمل إنساني يكتسب الطابع الخيري، ويقوم على بعد مدني صرف ينطلق من تعاقد الدول، التي تمنح الحماية والمساندة له، أي لجمعيات الإغاثة التي تعترف بحيادها وعدم جواز مهاجمتها من أي طرف من الأطراف. والتف عدد من المؤمنين بهذه الأفكار حول المبادرة، فأسسوا ما سمي بـ "لجنة الخمسة" التي تألفت من الجنرال ديفور، وجوستاف موانييه، والطبيبين تيودور مونوار ولويس أبيا، إضافة إلى هنري دونان، وهي اللجنة التي نظمت مؤتمرا لها في جنيف دعت فيه لإنشاء الجمعيات الوطنية للإغاثة. وتواصلت بعد ذلك الجهود التي تكللت بدعوة الاتحاد السويسري إلى عقد مؤتمر جنيف الدبلوماسي لعام 1864، الذي شارك فيه مندوبون عن 16 بلدا، صاغوا اتفاقية جنيف الأولى الخاصة بتحسين حالة الجرحى العسكريين في الميدان.

وكانت لجنة الخمسة قد شكلت "لجنة دولية لإغاثة العسكريين الجرحى" اتخذت فيما بعد اسم "اللجنة الدولية للصليب الأحمر"، دعت إلى إنشاء جمعيات وطنية، وإلى التدخل في وقت الحرب كجهة محايدة، لضمان حماية الضحايا. وفي فترة الحرب العالمية الثانية اهتمت اللجنة الدولية بمصير أسرى الحرب فزار مندوبوها المعسكرات، وأنشأت اللجنة الدولية وكالة مركزية للاستعلامات في جنيف تولت نقل ملايين الأخبار بين الأسرى وعائلاتهم، كما وسعت اللجنة الدولية نشاطها ليشمل حماية المدنيين تحت الاحتلال، كما أسهمت في تطوير واستكمال اتفاقيات جنيف ومراجعة وتنقيح النصوص والأحكام الجديدة التي تم قبولها في أعوام 1929 و1949.

الانتشار العالمي

وتجلى نمو الحركة خارج حدود أوروبا في إنشاء جمعيات الهلال الأحمر إلى جانب الصليب الأحمر، وهي الجمعيات التي اتخذت الهلال الأحمر على أرضية بيضاء شارة لها كمعكوس للعلم التركي آنذاك، على غرار معكوس العلم السويسري المتمثل في الصليب الأحمر على أرضية بيضاء.

في عام 1919، اتحدت الجمعيات الوطنية للصليب الأحمر والهلال الأحمر في اتحاد عالمي هو "رابطة جمعيات الهلال والصليب الأحمر"، ويشكل الاتحاد أكبر محفل عالمي يلتقي فيه ممثلو الجمعيات الوطنية من جميع البلدان ليتبادلوا الخبرة ويتقاسموا العون، لتنسيق أنشطة الجمعيات الوطنية، لاسيما في أعمال الإغاثة في حالات الكوارث الطبيعية. ويبلغ عدد الجمعيات الوطنية اليوم أكثر من مائة وواحدة وثمانين جمعية تضم أكثر من 250 مليون عضو وموظف بالحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر، لتشكل بالتالي القسم الأعظم من المنظمات غير الحكومية، الدولية وغير الدولية، الأمر الذي من شأنه أن يجعل دور العمل الإنساني اليوم يمثل وزنا كبيرا على اتساع الأرض، في إطار ما يمكن لنا أن نطلق عليه مجازا "المجتمع المدني العالمي".

من الصعود إلى الانزواء

بالنسبة لهنري دونان، شكل نشر كتاب "تذكار سولفرينو" بداية لفترة قصيرة من النجاح الشخصي، إذ إنه كان قد انصرف عن تجارته وأعماله للتفرغ للعمل العام، وفي السنتين 1863 و1864، بلغ نجمه قمته عندما تحقق تسابق الناس لدعمه وتأييده، ثم بدأ في الأفول عندما بدأ دونان الحالم في الانزواء تدريجيا ليتيح الفرصة لرجال أكثر منه عملية لتبني المشروع. وشهد عاما 1865 و1866 مزيدا من الهبوط في مشاركته في الحركة التي ولدتها مقترحاته. وكان حياؤه وخجله مسؤولين عن ذلك، فالشاب الذي كان بليغا ومقنعا بقلمه وفي أحاديثه مع الناس، لم يكن لديه سوى القليل الذي يقدمه في الاجتماعات والمؤتمرات.

ومثل عام 1867 كارثة بالنسبة له. إذ كان لابد من تصفية أعماله التي أهملها طويلا. واضطر للتضحية بكل ما يملك لإرضاء دائنيه. وسرعان ما ترك جنيف بعد ذلك للأبد، وكان عمره آنذاك 39 سنة، لتصبح السنوات العشرون التالية بالنسبة له صعبة للغاية، فقد عاش فيها حياة مزعزعة، وصار فريسة للعوز والفاقة، فلم يكن يظهر إلا في مناسبات نادرة تقام لتكريمه على مشاركته في تأسيس الصليب الأحمر. غير أنه ظل يعيش مغمورا طيلة الوقت.

وفي أحد الأيام من عام 1887، ظهر رجل مسن في مدينة هايدن السويسرية. وعرف أهل المدينة أن هذا الرجل هو هنري دونان، الذي كان بسبب خيبة الأمل والعوز قد أصابته الشيخوخة قبل الأوان. وفي بيته الجديد، صادقه الكثيرون وأولوه العناية التي يستحقها. وأحيانا كان يتصل به أصدقاء قليلون من الماضي وأنصار سابقون سمعوا بأنه لا يزال حيا. ثم أرغمه اعتلال صحته في 1892 على الإقامة في المستشفى المحلي الذي أقام به فترة الثمانية عشر عاما الأخيرة من حياته.

> طلعت شمس يوم 25 يونيو على واحد من أشد المشاهد التي يمكن أن نتصورها هولا. فقد كانت ساحة القتال على اتساعها مغطاة بجثث الرجال والجياد. وتناثرت أجساد الموتى على الطرق وفي الحفر والوديان والغابات والحقول. كانت مداخل سولفرينو مكتظة تماما بالقتلى. وقد دمرت الحقول فتقصفت أعواد القمح والذرة، وتحطمت الأسيجة وخربت البساتين. وكان المرء يقابل بين الفينة والفينة مستنقعات صنعتها الدماء. وبدت على القرى المقفرة آثار تدمير رشقات البنادق والقنابل والمدافع، كما تزعزعت الجدران وتخرمت بفعل الطلقات التي فتحت فيها ثغرات كبيرة، وتصدعت البيوت وتخربت.
>
> (فقرة من كتاب: تذكار سولفرينو)

معركة سولفرينو
[لوحة للفنان: كارلو بوسولي]

عاش دونان عشرين عامًا صعبة كان فيها فريسة للفقر والعوز، وظل مغمورًا إلى أن نال جائزة نوبل الأولى.

أول الحاصلين على جائزة نوبل للسلام

في عام 1892، علم صحافي شاب كان في رحلة بالجبال بوجوده، فأجرى معه لقاء عرف منه العالم أنه لا يزال حيا. وتوالت حملات التكريم له. وكانت ذروة التكريم له في عام 1901، عندما منحته لجنة نوبل أول جائزة لها للسلام، التي شاركه فيها الفرنسي "فريدريك باسي"، الاقتصادي وصاحب الكتاب الفذ: "تاريخ العمل". وكان دونان أضعف من أن يقوم بالرحلة الطويلة إلى كريستيانا لاستلام الجائزة والوسام، فتم إرسالهما له في هايدن. وجاءته من جنيف رسالة من اللجنة الدولية تقول: "ليس هناك من يستحق هذا الشرف أكثر منك، فأنت الذي أسست منذ أربعين سنة مضت، المنظمة الدولية لإغاثة الجرحى في الميدان. وبدونك ربما لم يكن من الممكن أن يتحقق ذلك الإنجاز الإنساني الأعظم" ■

الرفق في ميادين القتال*

هنري دونان

ظلت مشاهدة ميدان واسع للقتال، مكتظ بالموتى والجرحى أمرا صادما بشدة لمخيلتي.

وتواقا لأن أمحو من ذهني ذكريات هذا العرض الموجع والمفجع، لم أولِ عناية لضرورة إطلاع الجمهور على الأحداث الرهيبة غير المتوقعة، والمعاناة الشرسة، ومشاهد الاحتضار المؤلمة، التي كنت شاهدا عليها في معركة سولفرينو المروعة؛ لذا ترددت طويلا قبل أن أزمع كتابة ملخص قصير لبعض المشاهد المؤسية التي كان من سوء طالعي أن شهدتها.

فإذا كان قراري قد استقر في النهاية على أن أبوح ببعض التفاصيل المحزنة التي حدثت نتيجة لهذه المعركة الهائلة، وهو ما ضمنته في كتابي "تذكار سولفرينو"، فذلك لأنني اعتقدت أن من واجبي أن أبذل قصارى جهدي للفت الانتباه نحو قضية هامة وهي قضية الإغاثة العاجلة عقب القتال للعسكريين الجرحى، والعلاج الواجب أن يتلقوه في عربات الإسعاف والمستشفيات.

لقد عبر كتاب "تذكار سولفرينو"، بهذا الصدد، عن فكرة، وعن أمنية عامة، يمكن صياغتها في النقاط الخمس التالية:

(1) أن يتم في بلدان أوروبا المختلفة إنشاء لجان وطنية دائمة، مخصصة لدراسة النظام الحالي لفرق الإسعاف العسكرية، للإسهام في تطويرها، وتحسين كفاءتها، وإعدادها للإفادة من الحماس الخيري الذي يظهر عفويا في زمن الحرب، وتوجيهه على نحو سريع ومنظم.

(2) التنظيم الذكي لفرق الإغاثة لنقل الجرحى وتدبير شؤونهم في وقت الحرب بطريقة تجعل هذه الفرق جاهزة باستمرار وبأعداد كافية.

(3) إلحاق هيئات معالجة ومسعفة، مكونة من متطوعين مخلصين، ومؤهلين، ومستعدين للعمل في هذا المجال في كل الجيوش المتحاربة.

(4) رفع كفاءة وسائل نقل الجرحى من ميدان المعركة إلى عربات الإسعاف إلى المستشفيات.

(5) إنشاء تحالف إنساني منسق بين اللجان الوطنية، تعمل كل مكوناته المستقلة، بفعل اختلاف القوميات والثقافات والأعراف، باتجاه نفس الهدف الإنساني الخيري.

ومع ذلك، لا يمكن فقط أن تقوم فكرة مماثلة وتتأكد من تلقاء ذاتها، بل يجب أيضا أن تلاقي القبول من قبل الرأي العام، وأن يتم تجسيدها فعليا في مؤسسة دائمة.

هذا ما كان يشغلني عندما أمعنت النظر في ميدان معركة سولفرينو، ولكني لم أتوقع عند إفصاحي عن الأمنيات التي خالجتني أن أراها تقع محل الترحيب الشديد بهذه السرعة؛ فإذا حدث هذا، فلأنها كانت تستجيب، وأنا مقتنع بذلك، لمتطلبات حقبتنا، ولاحتياج ملح في زمننا.

لقد انطلق الفكر من جنيف، وفي جنيف أيضا بدأ الشروع في تنفيذه، ففي هذه المدينة تشكلت أول لجنة تحت الرئاسة الكريمة للجنرال دوفور، رئيس أركان القوات السويسرية، وبفضل المبادرة المثابرة للسيد غوستاف مونيه، رئيس جمعية جنيف للنفع العام.

هناك مقولتان عظيمتان يباعد بينهما ألفا عام، نقلتا عن قائدين كبيرين، أحدهما وثني والآخر مسيحي.

قال سيبيون:

"أفضل أن أنقذ حياة مواطن على أن أقتل ألف عدو"

وقال الأرشيدوق شارل أوتريش:

"إن حياة إنسان شجاع بالنسبة لي أغلى من خمسين مدفعا"

لقد اتفق البعض عند استعراض موضوع الحرب، على أنها تعد

(*) هذا المقال هو أحد المقالات المنشورة في كتاب «المستقبل الدامي»

أمرا مقدسا.

وبتأملي لطبيعتها أقول: إن الحرب، مع أنها أمر لا يمكن تجنبه، فمن الضروري أن تتم بأقل قدر من البربرية.

ولست هنا بصدد مناقشة الحق في السلم، ولا مناقشة ما اصطلح على تسميته بقانون الحرب.

كما أنني لست أبدا بصدد التعرض للمشكلة الرهيبة المتعلقة بمشروعية الحرب، ولا للحلم، الذي أصبح مستحيلا في ظل الحالة الحاضرة، بالعالمية وسيادة السلم.

إن هدفي أكثر تواضعا.

فباسم الإنسانية والعقل وباسم الدين، بل وباسم السياسة نفسها.

أود، عندما تحين اللحظة التي يتواجه فيها الرجال والمواطنون المتدينون، المسلحون ضد بعضهم، لكي يريقوا دمهم كجنود على هذه الأرض، التي لا يجب أن يرويها سوى عرق العاملين، أقول أود أن تتمكن الرحمة، المتجسدة في شكل جمعية إغاثة، من منازعة الحرب، في كل من ضحاياها الذين أصابتهم النصال، والذين لم يحصدهم الموت بعد.

أود أيضا أن يحدث توافق على أرض المعركة، بين الحرب باندفاعها الجنوني، وبين الرحمة بتفانيها وإخلاصها، ـ حرب الجنود الذين يريدون التضحية، والرحمة الواجبة للجرحى الذين يتوقون للإنقاذ ـ، توافق يتقارب فيه الطرفان، ويتحدان، وينسجمان، لكي يهتما بمنح البشر، الذين يعانون، ما يدل حقا على الاتحاد والتسامح العطوف.

فإذا كانت الحرب مبارزة بين أمتين، شأن المبارزة التي هي حرب بين شخصين، أليس من الطبيعي والضروري أن نأخذ على عاتقنا التخفيف من ويلاتها، وأن نتوسل النتائج بمعايير مماثلة، على سبيل المثال، تلك المعايير التي نعمل بها دوما من أجل العلاج في أعقاب المبارزات الدامية؟

وبطبيعة الحال، فإن من بين تلك المعايير، وعلى رأسها، أن يحضر الدعوة للمبارزة مع كل من المتقاتلين صديق، أو جراح، تواق للخدمة، ومزود بالإمكانيات، لتضميد الجراح وتهدئة الألم وللتحذير، بقدر استطاعته، من كل عاقبة مهلكة.

لماذا إذن لا نمارس من أجل الجنود من ضحايا الحرب ما يمارس منذ زمن طويل، بقدر من المنطق والنجاح، مع ضحايا المبارزة؟

فسواء في الحرب أم في المبارزة، هناك دم إنساني يسفك، وهذا الدم، أيا كانت اليد التي تريقه، ألا يصرخ متوسلا رحمة الإنسان، وشفقة البشر، وإخلاص المتدينين؟

ولو كان من واجب الجندي أن يريق دمه تحت راية بلاده لحماية مواطنيه، فإن هذا يحدث بلا شك بشرط أن يفعل هؤلاء من أجله شيئا؛ وهو شرط لا يمكن التغاضي عنه؛ لأنه شرط تضامني بينهم، فواجب المواطن ينحدر من واجب الجندي.

هذا التضامن الذي يحدث على نحو مصغر، وغالبا ما يكون عفويا، في وقت السلم. أليس من الواجب أن يحدث على نحو واسع، وبشكل معد له، ومنتظم، في وقت الحرب؟

فكلما ازدادت احتمالات الخطر وتعددت، كلما كان على الجهود أن تكون كبيرة من أجل تحاشيها والتغلب عليها.

ولكن، كما يقول لي البعض، نحن لدينا الإغاثة الرسمية المدمجة في الجيش، والمجهزة للنزاعات الدامية بين الأمم المتقاتلة.

على هذا أجيب بكلمات قليلة، بما أن المعارك بوسعها الإجابة بدلا مني، وليس فقط معارك إيطاليا، ولكن معارك الأمس القريب، فقط أعيد ما سبق أن قلته في أعقاب سولفرينو، وهذه المرة أقوله من واقع الخبرة المكتسبة لدى العسكريين الجادين، غير المنحازين:

إن أعداد أفراد الإغاثة العسكريين دائما غير كافية، وإذا ما ضاعفنا أعدادهم مرة أو مرتين فلن تكون كافية أيضا، لذا فمن الضروري بشكل حاسم اللجوء لعموم الناس، وهذا أمر إجباري، بما أننا لا يمكن أن نبلغ الهدف الواجب بلوغه بغير تعاونهم. ولابد من مناشدة المواطنين جميعا وعلى جميع المستويات، مناشدة المتنفذين في هذا العالم بنفس قدر مناشدة أكثر الحرفيين تواضعا، بما أنهم جميعا يمكنهم، بطريقة أو بأخرى، كلٌ في مجاله وحسب قدراته، أن يتآزروا في هذا العمل الخيِّر.

نعم، عمال فرق الإغاثة غير كافين، في أي بلد، ودائما، وفي كل الحروب، وفي كل الأزمنة، وبكل الجيوش.

وتؤكد الحوليات العسكرية لكل الشعوب هذه الحقيقة المؤسفة، وما هو أشد مأسوية أيضا، هو أنه، أيا كانت التدابير الكريمة والمثابرة التي تتخذها الحكومات من أجل زيادة أعداد وتحسين أداء فرق الإغاثة الرسمية المدمجة بالجيوش، فلن تتمكن أبدا من الوصول بالجهود الإدارية فقط إلى نتيجة مرضية.

لابد بالضرورة من حفز اهتمام الشعوب بهذا العمل والحصول على تعاونها. لكن هذه الجماهير لابد لها من تسيير، وقيادة، وتوعية؛ فحماسها المندفع، لابد من نظمه وضبطه، وإلا فإن تفانيها سيقع فريسة للإبعاد والإحباط.

إن عمل الشعوب الذي يشغلنا لابد أن يكون دوليا، بما أنه عمل على المستوى العالمي. فهو عمل الجميع من أجل الجميع؛ ولابد أن يشغل كل كائن إنساني. فهو يهم البشرية جمعاء وفي إطار غير محدود، يضم كل شعب، وكل قطر، وحتى كل عائلة، بما أن الجميع معرضون لخطر الحرب، فهي تؤثر في غرائز الأفراد، وتحرك المشاعر الدفينة لدى السكان.

أيكون من المبالغة أن نطلب من بشر القرن التاسع عشر، وكل حكام أوروبا، أن يستلهموا ما قام به ملك الفرس، قورش، الذي، كما قال عنه زينوفون وكل الوثنيين لم يدخر وسعا في بذل عنايته لتوعية جنوده بما يقيهم شر عدم التبصر، وإمدادهم بكل ما يحتاجونه من أجل تخفيف الآلام التي تجلبها لهم الحرب.

إن المهمة المقدسة والشجاعة للممرضين المتطوعين، لو أن هذه المؤسسة تم تعميمها وتبنيها في كل أنحاء أوروبا، ستكون أكبر فعل خير يمكن أن يقدم للجيوش. من أجل تجنب المعاناة واليأس؛ ومن أجل إنقاذ حيوات الجنود الشجعان؛ ومن أجل الحصول على عرفان العائلات تجاه الحكومات والجمعيات التي بذلت مساعيها لتأمين العلاج الناجع والمخلص لأبنائها في أعقاب المعارك؛ فما أكثر الدعاء الذي سيحظون به من قبل الأمهات اللواتي سيتجدد لديهن الأمل في أن أبناءهن قد يتلقون، ربما عند احتضارهم، كلمات المواساة، والعزاءات الدينية ■

المقاتل الثالث

مع الاستجابة لدعوة هنري دونان التي أطلقها في أعقاب معركة سولفرينو، بزغت صورة عالم جديد، فلم يعد تقرير مصائر البشر في الحروب التي احتلت الحيز الأكبر في تاريخ الإنسانية، حكرا على إرادة أطرافها المتنازعة فحسب، بل دخل في المشهد طرف جديد، هو من يطلق عليه البعض تسمية "المقاتل الثالث"، أي ذلك الحشد الإنساني المحايد الذي صار يحمل راية الصليب الأحمر، التي أصبحت تمثل اليوم حركة عالمية كبرى تدافع عن الضحايا، وتخفف آلامهم، وتدعو لإيجاد واقع جديد يترفق فيه الإنسان بأخيه الإنسان.

على هذه الصفحات تخيرنا عددا من الصور التي تعكس جانبا من تاريخ هذا المناضل الثالث، كان فيه بلسما للمستضعفين عبر فترة ناهزت قرنًا ونصفًا، شهد العالم فيها أكثر الحقب دموية في تاريخه.

المصدر الفوتوغرافية، من أرشيف اللجنة الدولية للصليب الأحمر

الحرب الهسبانية الأمريكية، 1889، نقل الجرحى.

الحرب الروسية اليابانية 1904 – 1905، غرفة عمليات جراحية في مخيم بماتسوياما، اليابان.

الحرب التركية الصربية، عربة إسعاف يجرها حصانان.

الحرب الأهلية الإسبانية 1936 – 1939. جاين. أحد الملاذات أثناء تسليمها للقوات الجمهورية.

حرب البلقان 1912، سيارة د. مارفال مندوب اللجنة الدولية للصليب الأحمر تنقل جرحى.

•••

الحرب اليمنية في الستينيات. د. روشا مندوب اللجنة الدولية للصليب الأحمر مع ضابطين مصريين وعدد من المقاتلين اليمنيين أمام المستشفى الميداني.

النزاع العربي الإسرائيلي. عام 1967، معبر اللنبي، إعادة جثمان طيار إسرائيلي سقط بطائرته في الأردن.

أرغواي، حرب جزر فوكلاند ومالفيناس، باخرة مستشفى بريطانية بمرفأ مونتفديو.

السودان، كسلا، مركز معالجة الأطراف الاصطناعية التابع للجنة الدولية للصليب الأحمر. اثنان من المعاقين بفعل الحرب.

لبنان، مخيم برج البراجنة للاجئين. إخلاء المخيم بإشراف الصليب الأحمر اللبناني واللجنة الدولية للصليب الأحمر.

رواندا، وحدة طبية تابعة للجنة الدولية للصليب الأحمر أقيمت في مخيم للمشردين ■

الجمعيات الوطنية العربية تحيي
يوم العمل الإنساني

بمناسبة الثامن من مايو اليوم العالمي للصليب الأحمر والهلال الأحمر، قامت "الإنساني" باستطلاع للمسؤولين عن الجمعيات الوطنية في المنطقة العربية، حول أهمية هذا اليوم بالنسبة لمسار عمل الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر. وهو استطلاع قصدنا به التعرف على رؤية المسؤولين عن العمل الإنساني بالمنطقة العربية، ومعرفة وجهات نظرهم المتعلقة بوحدة الحركة، وطموحاتهم المتعلقة بمستقبل العمل الإنساني في المنطقة العربية. وبطبيعة الحال جاءتنا المساهمات التي كان من شأنها أن تدفعنا نحو الشعور بالمزيد من الثقة في هذا المستقبل، فهي جميعها تعكس الرغبة في تدعيم وحدة الحركة، وتطالب بالمضي قدما نحو المزيد من التنسيق في الميدان، لصالح الضحايا، كافة الضحايا في العالم أجمع، لتؤكد على المبدأ الأساسي الذي تنطلق منه فكرة العمل الإنساني، وهو أن "الإنسان بلسم لأخيه الإنسان".

كيف أصبح الثامن من مايو يومًا عالميًّا للصليب الأحمر والهلال الأحمر

• في أعقاب الحرب العالمية الأولى، شهد العالم حالة من التوق الشديد للسلام، وتعالت في كافة أنحاء الأرض الأصوات الداعية له.

• وفي عام 1922، وفيما أصبح يعرف فيما بعد بدولة تشيكوسلوفاكيا، بادرت الجمعية الوطنية للصليب الأحمر المتواجدة في هذه المنطقة آنذاك بالإعلان عما سمي بهدنة الثلاثة أيام للدعوة من أجل السلام.

• وقام زعيم بارز بالحكومة بكتابة ملخص صغير للهدف من هذه المبادرة كان نصه: «**إن جمعيتنا ترغب في تشجيع مجتمعنا لتجنب الحروب فضلا عن السعي للتخفيف من وطأة نتائجها... ولو أمكن لنا إحياء يوم سنوي في العالم أجمع من أجل ذلك، فمن المؤكد أن ذلك سيكون عملا من أجل السلام**».

• وكان ذلك بمثابة الإشارة الأولى لما أصبح يعرف فيما بعد باسم اليوم العالمي للصليب الأحمر والهلال الأحمر.

• وقد تم تعريف هذه المبادرة باسم «هدنة الصليب الأحمر»، وكان لها أثر كبير على الرأي العام، ولكنها قوبلت ببعض الارتياب من جانب قادة الجمعيات الوطنية. وبالنتيجة، أنشأ المؤتمر الرابع عشر لحركة الصليب الأحمر لجنة لدراسة موضوع «هدنة الصليب الأحمر». وقدمت اللجنة تقريرها للمؤتمر الخامس عشر للحركة الذي انعقد في طوكيو ـ اليابان عام 1934، وأشارت فيه إلى أنها وافقت على مبدأ «هدنة الصليب الأحمر» واعتبرت أن من الضروري لتطبيق هذه الفكرة أن يكون موضوعها أكثر عمومية.

• لكن اقتراح طوكيو هذا لم يكتب له أن يدخل حيز التطبيق إلا عقب الحرب العالمية الثانية، ففي عام 1946، وخلال الدورة الرابعة عشرة لمجلس حكام عصبة جمعيات الصليب الأحمر (وهي التي أصبحت فيما بعد الجمعية العامة للاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر)، طلب المجلس من أعضاء العصبة أن يتدارسوا إمكانية تبني فكرة يوم عالمي للصليب الأحمر تحتفل به كافة الجمعيات الوطنية.

• وبعد مرور عامين على ذلك، تم الاحتفال لأول مرة بهذا اليوم على صعيد العالم أجمع في الثامن من مايو/آيار عام 1948، وهو ذكرى ميلاد هنري دونان مؤسس الصليب الأحمر.

• ومنذ عام 1948 أصبح الثامن من مايو يعرف بأنه اليوم العالمي للصليب الأحمر والهلال الأحمر. ■

© اللجنة الدولية للصليب الأحمر

نشعر بالفخر بمتطوعينا

في هذا اليوم، وفي كل يوم من أيام العام، يعكس موظفو الهلال الأحمر الفلسطيني ومتطوعوه المعنى الحقيقي لليوم العالمي للصليب الأحمر والهلال الأحمر: الشجاعة، والحنو، والالتزام بالمبادئ الإنسانية، وهي حجر الأساس للحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر. وتشعر جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني بالفخر على وجه الخصوص بمتطوعيها الذين لا يتوانون عن خدمة مجتمعهم. فقد أدخلوا السرور على الأطفال بتلوين وجوههم في الأيام المخصصة للهو، وأسعدوا الكبار بأن أحضروا لهم الزهور، وساعدوا المرضى والمصابين، وخاطروا بحياتهم في مناسبات عدة من أجل إنقاذ الآخرين. ونحن نعتز بهم لتفانيهم اللامتناهي من أجل حماية الكرامة الإنسانية اعتزازنا بجميع المتطوعين في الحركة أينما وجدوا.

يونس الخطيب
رئيس الهلال الأحمر الفلسطيني

تطوير ثقافة الصليب الأحمر لدى الشباب

يعد الثامن من مايو موعدا سنويا يمكن من تقييم العمل المنجز من قبل مكونات الحركة الدولية وخاصة العمل الذي أنجزه المتطوعون بالميدان.

وهذا التاريخ يرمز إلى وحدة الحركة حول المُثل التي تتبعها مؤسستنا ويحيل إلى درجة تمسك المتطوعين بالمبادئ والقيم التي تمثل أساسا ومرجعا لكافة الأنشطة المنماة لتحسين شروط حياة البشر الأكثر ضعفا.

كما أنه مناسبة مميزة للتأكيد على توافق مكونات الحركة حول أولويات العمل، والمعالجات والمواقف في مواجهة التحديات الإنسانية.

كما أنه يعد أيضا بمثابة محفل للتشاور ولتبني سياسات الحركة في البيئة الخارجية المتغيرة باستمرار.

وهناك حاجة مستمرة لتحقيق تعاون أفضل بين مكونات الحركة على كافة مستويات المسؤولية، سواء القاعدية منها أم المتدرجة في مواقع اتخاذ القرار حتى أعلى المستويات.

وديناميات التعاون داخل الحركة من الممكن إعادة التفكير فيها وتحسينها لتجنب الجوانب غير الواضحة والازدواجية فيها.

على كل حال فإن وحدة الحركة وصورتها لابد من صيانتهما. وتأمين مستقبلها يمكن تأكيده من خلال المزيد من نشر المبادئ والقيم، والمزيد من التفاعل في المجالات التي يكون فيها للصليب الأحمر تأثير واقعي على شروط حياة الجماعات وبفضل المزيد من الاستعداد والتوقع للدور المستقبلي للحركة.

وللهلال الأحمر التونسي آمال فيما يتعلق بتطوير ثقافة الصليب الأحمر لدى الشباب والناشئة ولدى أعداد أكبر من المتطوعين المتحلقين حول المبادئ الأساسية.

د. طاهر شنيطي
سكرتير عام جمعية الهلال الأحمر التونسية ●●●

اليوم العالمي يمكّن أعضاء الحركة من الوعي بوحدتهم

إنه يوم للتذكير بأن الاحتفال العالمي لمكونات الحركة الدولية حدث عظيم سنوي ونذكر العالم من خلاله أنه يوجد فضاء إنسانية فعال يقوم بالعمل الإنساني لصالح المستضعفين، وضحايا الكوارث الطبيعية والنزاعات المسلحة.

هذا التقليد المتعلق بالاحتفال في العالم كله بذلك اليوم يظهر أننا، أي الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر» ضمن المؤسسات القديمة، ذات الطابع الوطني والدولي، نأخذ على عاتقنا مبادرة جذب انتباه العالم بأسره للمشكلات الإنسانية.

إذن هو حدث يمكن الحركة من إعادة تقييم أوضاعها في كل عام بالنسبة للمشكلات الأساسية للإنسانية التي من شأنها التسبب في معاناة البشر. أيضا يمكّن اليوم العالمي للصليب الأحمر والهلال الأحمر أعضاء الحركة من الوعي بوحدتهم ويظهر تلاحمهم برغم اختلاف العرق واللون والديانة.

ويقوم عمل الحركة على إمداد الأشخاص الضعفاء بأفضل الخدمات، فمهامنا المحددة، شأنها شأن صورتنا، التي تتمثل في الشارات المعترف بها، يجري القيام بها في عالم يتحول تحولا عميقا، ويظهر فيه فاعلون آخرون سياسيون وإنسانيون. وتقوم وحدة حركتنا بفضل التزام كل مكوناتها بوضع استراتيجيات تكمل بعضها تضع في حسابها الحاجات الفعلية للمنتفعين بأعمالها وللسياسيين الذين لديهم أولويات قد لا تتوافق بالضرورة مع أولويات الحركة.

إن الاحتفال بالثامن من مايو مناسبة لكل عنصر من عناصر الحركة لتدعيم الخبرة ومناقشة المواضيع الإنسانية والمواضيع المتعلقة بالعمل الإنساني. ومفهوم التكامل بين عناصر الحركة يتضمن المشاركة في الأولويات والوسائل في مواجهة التحديات الإنسانية بهدف تحقيق مشاركة متميزة ودائمة.

ونحن نعتبر أن كل المكونات تمتزج ببعضها البعض في هيئة قوة إنسانية في خدمة المستضعفين، وعلى تعاوننا في هذا الخصوص أن يعكس هذه المهمة المقدسة، كما أن على تشاركنا في المسؤولية أن يظل واحدا من أفضل المقاربات للإسهام على الأصعدة المحلية والدولية في تحسين شروط حياة الرجال والنساء في الأوضاع المتأثرة بالنزاعات والكوارث التي تعرض كرامتهم للخطر وتجعلهم دون حماية.

السيد بدر الدين بن سعود
سكرتير عام جمعية الهلال الأحمر المغربية

نشر وتعزيز القانون الدولي الإنساني والمبادئ الإنسانية

لعل هذا اليوم يعد الانطلاقة للتواصل والتزامن مع الأعوام السابقة التي ترسم الخارطة إلى طريق المستقبل. ولابد لنا أن نعي ونضع نصب أعيننا كافة العقبات التي واجهتنا ونذللها ، وأن تشكل لنا كافة الإنجازات الحافز الأمثل للتقدم .

إذا كنا نعي أن اللجنة الدولية تقوم بتوجيه وتنسيق أنشطة الإغاثة التي تضطلع بها الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر وتسعى إلى تخفيف المعاناة عن طريق نشر وتعزيز القانون الدولي الإنساني والمبادئ الإنسانية، فلابد لنا كذلك أن ندرك أن كافة الجمعيات والمؤسسات الحكومية وغير الحكومية في المنطقة والعالم أجمع تملك إمكانات وقدرات جبارة لمواجهة تلك الكوارث والأزمات من خلال المعدات والقدرات البشرية والدورات التدريبية للأفراد المنخرطين في هذا العمل ولكن الجميع يفتقدون لتواجد خطة عمل ونظام إقليمي موحد لمواجهة هذه الأخطار والتصدي لها ، فوجود نظام إقليمي موحد يساعد على تطوير القدرات على مواجهة الكوارث وسرعة احتوائها . إن التنسيق والعمل المشترك ضرورة وليس خيارًا ، وتأثيره مباشر إذ يشكل مناخًا احترافيًا ويوجه العمل الإنساني بصورة أفضل. إن الخطوات الجادة والمؤثرة تكون بتفعيل وتكوين الشراكة مع العديد من الجهات المعنية والمنظمات الدولية المسؤولة ـ كمنظمة الصحة العالمية ـ فهي ترتبط ارتباطًا وثيقًا ومتزامنًا مع طبيعة عمل الإغاثة بحيث تدعمه وتسانده.

لابد لنا كذلك أن نعي أهمية وضرورة بناء منظومة إقليمية لمواجهة الكوارث تشترك فيها الجمعيات الوطنية والحكومية والمؤسسات الدولية التي تساهم في بناء الشباب في المجتمع لتولي مهام إغاثية واجتماعية وإنسانية من منظور تطوعي.

كذلك لابد من تفعيل الزيارات والبرامج المشتركة ما بين اللجان والجمعيات الوطنية. ففي زيارة تفقدية قام بها السيد جاكوب كالينبرغر رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر لعدد من الجمعيات والمؤسسات الإنسانية في المنطقة، ناقشنا نحن في الهلال الأحمر القطري خلالها التحديات التي تواجهها اللجنة الدولية في العالم حاليًا، إضافة إلى الأوضاع الإنسانية المتردية في فلسطين والعراق وأفغانستان متطرقين إلى مجال الإغاثة وسلامة القائمين على توصيل مواد الإغاثة.

كذلك فإن العمل على نشر وتفعيل وتوثيق مبادئ ومواثيق القانون الدولي الإنساني وما يتعلق بأسرى الحرب وتطبيق اتفاقات جنيف يعد أمرًا جوهريًا. فما هي المسؤولية التي تقع على عاتق المحتل تجاه الدولة المحتلة. وما هي الضمانات الأمنية للقائمين على تنفيذ برامج الإغاثة. ولاشك أن المسؤولية تقع على عاتق الجميع في تكوين شبكة عالمية من الجمعيات الوطنية تسعى إلى العمل من خلال مجموعة واسعة من أشكال التطوع والبناء وامتلاك قاعدة موارد متنوعة ومستديمة والمناصرة الفعالة والمساهمة في وضع سياسات وطنية وأن تسعى إلى تكوين برامج وطنية تستجيب لحالات الضعف المحلية وتروج للمبادئ الأساسية للحركة وقيمها الإنسانية والمواجهة والتأهب للكوارث والصحة والرعاية في المجتمعات المحلية وهذه هي الخطوات الحقيقية التي يسعى الاتحاد إلى تعزيزها من خلال استراتيجية 2010، وكذلك الهلال الأحمر القطري من خلال استراتيجيته الحالية.

د. محمد العلي
أمين عام
الهلال الأحمر القطري

الهلال الأحمر القطري
Qatar Red Crescent

تعزيز التضامن بين الأعضاء والتنسيق الجيد في الميدان

يمثل الثامن من مايو نقطة فاصلة في مسيرة الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر لتحقيق تطلعاتها على الساحة الإنسانية التي تواجه الكثير من التحديات مما يتطلب تعزيز التضامن بين مكونات الحركة وتوحيد الجهود من أجل مستقبل أفضل للعمل الإنساني. وبالنسبة لجمعيتنا الوطنية يمثل هذا اليوم مناسبة للوقوف مع الذات وتقييم المسيرة والدفع بها إلى الأمام، والمساهمة بفاعلية في حشد التأييد للبرامج المشتركة ونشر القيم والمبادئ التي نسعى لتحقيقها، إلى جانب تسخير الإمكانيات وتفعيل الآليات المتاحة لتحقيق المزيد من التوسع والانتشار وتحقيق مكتسبات إضافية للمستهدفين من أنشطتنا وبرامجنا الإنسانية، وتعزيز القدرة على الحركة والتأهب للكوارث والتجاوب السريع مع نداء الواجب الإنساني في كل مكان وهي أهداف عليا نعمل من أجلها ونسعى لتحقيقها دائما.

ولا شك أن اليوم العالمي للحركة يمثل فرصة لتأصيل الحوار والنقاش حول المواضيع التي تهم الحركة، وخاصة أن العالم يشهد أوضاعا متغيرة، الأمر الذي يتطلب إعادة النظر في مفاهيم الشراكة وتنسيق جهود الحركة وتطوير إستراتيجية العمل الإنساني الدولي والنظر إليه بصورة أوسع بعد المتغيرات التي حدثت خلال الأعوام الماضية، بالإضافة إلى إيجاد وسائل أكثر فاعلية لإيصال المساعدات الإنسانية لمستحقيها في مناطق النزاعات و الحروب دون أن نتخلى عن مبادئنا الأساسية. ونتطلع أن تسفر هذه الجهود عن تحقيق المزيد من التضامن بين الأعضاء وزيادة التماسك بدلا عن التنافس مع الالتزام باستمرارية العمل والحركة.

لتحقيق تعاون أكثر فعالية بين أعضاء الحركة يجب استغلال قدرات مكونات الحركة بصورة أكبر والاستفادة من المزايا المتوافرة لديها لأقصى درجة، وتعزيز الشراكة الجديدة بين الأعضاء والعمل سويا وتطوير آليات التأهب والاستجابة السريعة للنداءات الإنسانية والتنسيق الجيد في الميدان، وترشيد عمل الحركة ومكوناتها والقضاء على التكاليف والمصاريف المزدوجة وإيجاد وسائل أفضل للعمل تتوافق مع البيئة المتغيرة والواقع الجديد في المجال الإنساني. إلى جانب ترجمة مبادئ اتفاقية إشبيلية على أرض الواقع لمصلحة الحركة ككل وبالطبع لمصلحة المستفيدين على نطاق أوسع. وتعزيز التعاون مع الشركاء من خارج الحركة والبحث عن مصادر جديدة للدخل بالتنسيق بين الأعضاء والحكومات والقطاع الخاص، والتزام الشفافية والوضوح في التخطيط لمستقبل الحركة، ومساندة الجمعيات الوطنية الضعيفة ودعم قدراتها خصوصا في الساحات الملتهبة، وتشجيع المبادرات التي تعزز مقدرة السكان في تلك الساحات على التكيف مع الأزمات التي يواجهونها. بالإضافة إلى إبراز نشاطات الجمعيات الوطنية بصورة أكبر وتوثيقها إعلاميا ومن خلال التقارير السنوية والدورية التي تصدر عن اللجنة الدولية والاتحاد الدولي.

سعادة خليفة ناصر السويدي
رئيس مجلس إدارة الهلال الأحمر الإماراتي

رسالة متلفزة للتنسيق بين الجمعيات الوطنية

يعني يوم 8 مايو لجمعية الهلال الأحمر البحريني معاني كثيرة وكبيرة، منها مضي عام كامل على نشاطات وفعاليات متنوعة ومتعددة في مجال الخدمات التي تضطلع بها؛ الاجتماعية منها والخيرية والإنسانية، ويعني أيضًا البدء بحماس في عام جديد يجسد المبادئ الأساسية النبيلة لحركتنا الأساسية.

وقد اعتادت الجمعية منذ سنوات عديدة الاحتفال بهذه المناسبة لتعريف المواطنين والمقيمين في مملكة البحرين بمبادئ حركتنا الكبيرة ويتم من خلاله تكريم المانحين والمتبرعين بالدم والمتطوعين البارزين في مجالات الخدمة المجتمعية الشاملة.

على مدى السنوات الماضية عملت اللجنة الدولية والاتحاد الدولي والجمعيات الوطنية بكل تعاون ومثابرة لتحقيق الأهداف المشتركة للحركة.

بكل تأكيد إن اليوم العالمي للحركة يمثل فرصة متكررة لإعادة التفكير وإعادة التعريف للجهود المشتركة لمكونات الحركة وخاصة ما تقوم به الجمعيات الوطنية من أعمال مقدرة وإن إحياء هذه المناسبة يدعو إلى تكثيف تلك الجهود لاستمرارية تقديم المساعدة لكل محتاج.

ومع مواكبة تطور الأحداث في العالم وتقديم التقنية الإعلامية، يقترح إصدار رسالة متلفزة بحيث يتم التنسيق بين مختلف الجمعيات الوطنية لبثها بالمناسبة من خلال القنوات الفضائية لبلدانهم.

وبذلك تتم زيادة فعالية التعاون وزيادة التعريف بالمبادئ الإنسانية وترويجها بما يؤكد مكانة الحركة ودورها الكبير في حياة الشعوب.

صادق عبد الكريم الشهابي
الأمين العام لجمعية الهلال الأحمر البحريني

نقد بناء نمارسه على أنفسنا أولا قبل غيرنا

إن تاريخ 8 مايو يوم عالميٌّ علينا أن نبرز فيه الدور الإنساني للحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر، وقد أعددنا لهذا اليوم إقامة احتفال للمعوقين وضعاف العقول والأيتام وبعض المرضى المستعصية علاجاتهم وكبار السن. وسيقوم المتطوعون بتقديم الهدايا للحاضرين أثناء عزف بعض الفرق الموسيقية، بالإضافة إلى عرض تليفزيون الكويت لفيلم عن أنشطة الجمعية في جنوب شرق آسيا (كارثة تسونامي).

عن مكونات الحركة الدولية وتنشيط العمل المشترك إن وجد، فهذا نقد بناء يجب أن نمارسه على أنفسنا أولا قبل غيرنا فإن النقد الذاتي أمر مطلوب حتى تستطيع القيادات التحرك تجاه ميدان العمل الإنساني بعيدًا عن النظريات وإعداد التقارير الورقية فقط.

●●● وعن النزول إلى ميدان العمل لدعم الجمعيات الوطنية المُحتاجة في كل من آسيا، وأفريقيا، وأمريكا الجنوبية، لأن هذه الجمعيات بحاجة إلى دعم مادي ومعنوي ودراسة شاملة لأوضاعهم العملية. فإن كل ذلك مطلوب لتحقيق تعاون أكثر فاعلية للحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر.

برجس حمود البرجس
الأمين العام لجمعية الهلال الأحمر الكويتي

نطمح للتنسيق مع المنظمات الإقليمية بالتعاون مع اللجنة الدولية والاتحاد الدولي

نحن سعداء جدًا أن نحتفل بهذه المناسبة مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وهي مناسبة مميزة جدًا لجمعيتنا، وأعتقد أن هذه أول مرة يتم فيها الاحتفال بها على مستوى كبير وبحضور مميز. كما أنها مناسبة لإرسال رسالة إلى المجتمع لأهمية هذا اليوم، وما يعنيه إنسانيًا، خاصة أن المجتمع بدأ يلمس آثار العمل الإنساني المشترك.

ومن المؤكد أن هذا اليوم هو مناسبة لإعادة النظر في الجهود المشتركة بين أعضاء الحركة، خاصة أن العالم مقدم على تحديات جديدة، فقد أثبتت الأحداث أن الحركة الدولية قادرة على مواكبة ومسايرة كل التطورات والتحديات التي تواجه البشر، كونها منسجمة مع أهدافها ومبادئها التي تؤمن بها.

على المستوى المحلي لدينا توجه لتنسيق وتكامل جهود الهلال مع باقي الجمعيات الخيرية، والمجلس التنفيذي يعد خطة لهذا العمل الذي يصب في النهاية في مصلحة الأهداف الإنسانية.

أما على المستوى الإقليمي فلدينا طموحات كبيرة في أن يتم التنسيق مع المنظمات الإقليمية بالتعاون مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر والاتحاد الدولي، فمن خلال الاتحاد الدولي يمكننا التنسيق ليس فقط على المستوى الإقليمي وإنما الدولي. كما أن هناك برامج عديدة بدأت مع الجمعيات على المستوى الدولي، وإن شاء الله نلمس نتائجها الطيبة قريبًا، وبهذه المناسبة أود أن أشكر اللجنة الدولية والاتحاد الدولي على جهودهما في توثيق العلاقات مع الجمعيات الأخرى.

د. محمد أحمد الكباب
رئيس جمعية الهلال الأحمر اليمني

نحتاج للجهود الإنسانية العالمية لترميم هذا الوضع المأساوي

ما الذي يمكننا قوله في الثامن من مايو حول ما يحدث بالعراق، إننا نصحو يوميا على أصوات انفجارات وننام على أصوات انفجارات. فيوميا هناك العديد من السيارات المفخخة، والعديد من أطفال المدارس يقتلون، كما أن النساء يقتلن في الشوارع. إن الوضع الأمني في العراق غير مستقر، ويتطلب الكثير من الجهود، وجهود العراقيين.

وقبل الحرب الأخيرة على العراق، كان هناك الحصار الذي امتد على مدى أربعة عشر عامًا، وقد توفي في تلك الفترة أكثر من مليون طفل تقريبا بسبب النقص في الغذاء والدواء.

أما بعد الحرب مباشرة فقد تردت الحالة الإنسانية في العراق، وتدهورت البنية التحتية تماما، فالصرف الصحي تقريبا غير موجود، وهناك نقص كبير في الكهرباء مما يؤدي إلى شحة الخدمات في المستشفيات، فهذه المستشفيات بحاجة للكهرباء لإدامة عملها والقيام بالعمليات الجراحية وغير ذلك، أما المياه فقد أصبحت غير صالحة للشرب فقد ضربت محطات المياه، وصارت الشوارع غير نظيفة، وصارت البيئة تعاني من وضع مأساوي جدا، وهذا يؤثر على حياة العراقيين بشكل عام. هذا جانب، الجانب الآخر ما حدث من صراعات عسكرية، في الفلوجة وفي سامرا وفي النجف وفي الموصل وفي بغداد، وفي أكثر من مكان بالعراق وقد خلف هذا أوضاعا مأساوية نتج عنها الكثير من النزوح من مختلف المناطق، ففي الفلوجة على سبيل المثال هناك حوالي ثلاثمائة ألف شخص هم سكان الفلوجة غالبيتهم حاليا يسكنون الخيام ويسكنون مدارس مهجورة أو يسكنون في العراء. وهناك أيضا حالات نزوح كثيرة في كثير من الأماكن بالعراق، وهؤلاء النازحون بحاجة إلى غذاء وإلى دواء وإلى رعاية صحية. إن الوضع المأساوي في العراق شأنه شأن الوضع الأمني يتطلب جهودا كثيرة من المجتمع الدولي بشكل عام ومن المنظمات الإنسانية وليس فقط من الهلال الأحمر العراقي، فالهلال الأحمر العراقي قام بواجبه تجاه الناس الذين احتاجوا إليه في وقت الأزمات لكن هذا لا يكفي، ويفترض أن تكون هناك الكثير من الجهود الإنسانية العالمية لترميم هذا الوضع المأساوي الذي نتمنى ألا يستمر كثيرا.

فردوس العبادي
الناطقة باسم الهلال الأحمر العراقي

توحيد استراتيجيات العمل لخدمة القضايا الإنسانية في العالم

في الثامن من مايو/آيار، من كل عام، وهو اليوم العالمي للحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر، تحتفل منظمة الهلال الأحمر السوري وفروعها بهذه الذكرى.

ويبرز من خلال هذه الاحتفالات الدور الذي تلعبه المنظمة من خلال نشاطاتها على المستوى الوطني والمحلي والدولي ويهدف إحياء هذه المناسبة إلى تطوير النشاطات ومواجهة التحديات بما يتناسب مع الأهداف الإنسانية للحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر.

والاحتفال باليوم العالمي للصليب الأحمر والهلال الأحمر هو من أجل التذكير بالحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر وبترسيخ مبادئها الإنسانية التي تسعى من خلالها إلى العمل على نشرها وتطبيقها في مجتمعاتها الأهلية.

إنها مناسبة لتذكير الجميع بأن الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر تضم أكبر شبكة عالمية للخدمات الإنسانية من خلال الجمعيات الوطنية والاتحاد الدولي واللجنة الدولية للصليب الأحمر والتي تمكنها من أن تلعب دورا «فعالا» في تحقيق الأهداف الإنسانية وخدمة الإنسان أينما كان من خلال تبادل الخبرات والمشاركة في المعلومات وتوحيد استراتيجيات العمل بما يخدم القضايا الإنسانية في العالم.

د. عبد الرحمن العطار
رئيس الهلال الأحمر السوري

ندعو جميع المشاركين في النزاعات المسلحة إلى احترام قواعد القانون

الثامن من مايو/آيار محطة تأمل نتذكر فيها هنري دونان مؤسس الحركة العالمية ومبادئه الإنسانية التي أصبحت مثالا اقتدي به وتعاظم على مر السنين، كما أن هذا التاريخ يستدعي وقفة تأمل وتقييم لما نراه حاليا من ابتعاد عن نصرة ضحايا النزاعات المسلحة، وخرق دائم وفاضح للقانون الدولي الإنساني في أماكن عديدة من العالم، إننا ننتهز مناسبة الثامن من مايو/آيار هذا العام لدعوة جميع المشاركين في النزاعات المسلحة إلى احترام قواعد قانون النزاعات المسلحة الذي أثبت وعلى مدى أكثر من 140 سنة أنه ضرورة وحاجة ملحة لجعل النزاعات أكثر إنسانية مما يساعد على العودة للسلم. ونهنئ جميع المتطوعين على ثباتهم في مبادئهم وندعوهم لتعزيز ونشر تلك المبادئ كي تبقى رسالة دونان عالية.

وأود التوجه لمكونات الحركة الدولية مشيدا بالتعاون القائم فيما بينها في أداء رسالة إنسانية واحدة، وأن أنوه بما يميز الحركة من قدرات ومهارات لأكثر من مائة مليون متطوع بالعالم، ومن انتشار واسع، وتاريخ ناصع مشرف في تدخلها الحيادي الذي يؤهلها للعب دور فاعل في ظل منافسة شديدة من قبل العديد من المنظمات التي تؤدي أدوارا مشابهة من شأنها التأثير على دور الحركة. كما أود أن أذكر بالتراجع الحاصل في دور وفعالية الدول والحكومات لصالح المنظمات والهيئات الدولية الحكومية وغير الحكومية، وهو ما من شأنه أن يحدونا للتفكير مليا وبعمق في هذا الوضع، وإلى ضرورة رسم دور متميز للحركة وفقا لقدراتها ومميزاتها.

العميد الركن سليم ليون
رئيس الصليب الأحمر اللبناني

التأكيد على مبادئ القانون الإنساني

يمثل الثامن من مايو/آيار من كل عام يوما تؤكد فيه جمعيتنا الوطنية مجددا على تضامنها مع العناصر الأخرى للحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر. ففي هذا اليوم، نحتفل بالجهود الإنسانية العظيمة التي تضطلع بها الحركة الدولية من أجل تخفيف معاناة الأكثر ضعفا بأسلوب يحفظ لهم كرامتهم الإنسانية. إن مهمتنا الجلية هي ضمان توفير حماية ومساعدة ملائمتين لضحايا النزاعات المسلحة والاضطرابات في أي منطقة في العالم. وتضمن شارتا الصليب الأحمر والهلال الأحمر الحماية، وإن كانتا لا تحظيان في بعض الأحيان بالاحترام أو تتعرضان لإساءة الفهم.

ونؤكد مجددا على مبادئ وقواعد القانون الدولي الإنساني، ونلتزم بالعمل على زيادة احترام المبادئ والقيم الإنسانية من خلال تشجيع التسامح، وعدم التمييز، واحترام التباين بين البشر جميعا. ونتفق على ضمان احترام المدنيين – لاسيما النساء والأطفال – في جميع أشكال النزاع والاضطرابات، وعلى احترام التراث الثقافي لجميع الشعوب.

ونحن ملتزمون بالعمل على تقليل أثر الشدائد واحتمالات وقوعها من خلال دمج سبل التخفيف من أثر الكوارث في جميع عمليات التخطيط الوطنية والدولية وفي المواثيق التي تحدد السياسات. وعندما تقع الكوارث، نتفق على تنفيذ جميع السياسات القانونية والتدابير الميدانية الملائمة من أجل ضمان الاستجابة الفعالة.

نظم الهلال الأحمر الأردني بالتعاون مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر هذا العام مسابقة في الرسم لتلاميذ المدارس ما بين سن الرابعة عشرة والسادسة عشرة عن المبادئ السبعة للحركة الدولية. وندير برنامجا شاملا من الندوات وورش العمل من أجل مكافحة الوصم بالعار والتمييز اللذين يتعرض لهما المصابون بمرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز)، وكثيرا ما نساعد منظمات وطنية أخرى تعمل في هذا المجال، كما نضطلع بدور ريادي على المستوى الوطني في إدارة برنامج للتوعية بخطر الألغام.

ونحن نقدم نموذجا لمنطقتنا حيث يوفر الاستقرار السياسي والمبادئ الديمقراطية وحكم القانون الفرصة للأردنيين للتفوق، والمساهمة في تنمية بلدهم، وفي أن يكونوا ميزة لمنطقتهم. لقد صممت جهودنا للإصلاح الداخلي بحيث تكون عاملا محفزا على بناء شرق أوسط جديد تحل فيه التنمية الاجتماعية والاقتصادية محل الصراع السياسي، وحيث يأذن السلام والتعايش بواقع جديد من التعاون والتحقق.

د. محمد الحديد
رئيس الهلال الأحمر الأردني

العراق: 25 عاما من عمل اللجنة الدولية

الصورة الفوتوغرافية: أسوشيتد برس

بحلول العام 2005، يكون قد مضى على تواجد اللجنة الدولية للصليب الأحمر بالعراق خمسة وعشرون عاما. إذ يرجع تاريخ عملها في هذا البلد إلى عام 1980، وذلك عندما تدخلت كوسيط إنساني محايد بين الأطراف المتنازعة في الحرب العراقية الإيرانية.

كانت مهمة اللجنة الدولية في تلك الفترة تتمثل في العمل على ضمان تطبيق القانون الدولي الإنساني من جانب كل من الطرفين المتحاربين، والعمل على وقف الانتهاكات التي ترفضها القوانين والأعراف الدولية، إضافة إلى التدخل من أجل ضمان المعاملة الإنسانية للضحايا من الأسرى والمحتجزين على الجانبين.

كما هو معروف، أسهمت تعقيدات هذا النزاع، كما أسهمت الظروف الدولية غير المواتية في تلك الفترة إلى إطالة أمد هذه الحرب لما يزيد على الثماني سنوات، وفي استفحال نتائجها المروعة التي جعلت منها أكثر الحروب التي وقعت بعد الحرب العالمية الثانية قتلا وتدميرا، ليس في تاريخ الشرق الأوسط فحسب بل في تاريخ العالم، فقد سقط فيها مئات الآلاف من الضحايا، بينهم نسبة لا يستهان بها من المدنيين، إضافة إلى وقوع أعداد، قدرت بما يفوق المائة ألف بين أسير ومفقود على الجانبين.

وغني عن القول أيضا أن مهمة اللجنة الدولية صادفت الكثير من التعقيدات، التي حالت دون القيام بدورها الذي كانت ترجوه على الوجه الأكمل، وبالتالي في وجود العقبات التي سعت اللجنة بكل دأب إلى تذليلها. فعلى سبيل المثال، وحتى بعد انتهاء الحرب عام 1988، ظلت مشكلة الأسرى والمفقودين تمثل معضلة عالقة. لذا كثفت اللجنة من مساعيها وكرست كافة خبراتها الفنية والدبلوماسية لدى أطراف النزاع ليستمر تبادل الأسرى تحت إشرافها، وهي العملية التي تواصلت زهاء الخمسة عشر عاما، أي حتى عشية حرب قوات التحالف ضد العراق في مارس/ آذار 2003، وتم فيها تبادل أكثر من سبعة وتسعين ألف أسير حرب من الطرفين.

آثار حرب الخليج الثانية

في أعقاب حرب الخليج الثانية عام 1991، قامت اللجنة الدولية بترتيبات لإعادة أكثر من 70,000 عراقي وأكثر من 4,000 كويتي وأسير حرب من قوات التحالف إلى وطنهم، علاوة على 1,300 معتقل ومحتجز مدني. ومنذ ذلك الحين، استمرت اللجنة الدولية في المساهمة في جهود الأطراف المعنية للبحث عن الأشخاص الذين لم يُستدل عليهم. وفي أبريل/ نيسان 1991 عملت اللجنة الدولية في إطار الجهود الرامية إلى تسوية القضايا الإنسانية التي لم تُحسم، على تشكيل لجنة ثلاثية، من ممثلين على مستويات عليا من العراق والكويت ودول التحالف (السعودية وفرنسا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة) للمساعدة في التحقق من مكان ومصير الأشخاص الذين لم يُستدل عليهم عقب الأعمال العدائية. وقد عملت هذه اللجنة من عام 1991 حتى سبتمبر/ أيلول 1998.

زمن العقوبات الاقتصادية

مع فرض العقوبات الاقتصادية التي وقعتها الأمم المتحدة على العراق في أعقاب غزو الكويت في أغسطس/ آب 1991، أصبح السكان المدنيون العراقيون يعيشون حالة من الشقاء المتزايد، وصارت حياتهم اليومية سلسلة من الكفاح المتصل بفعل تدهور الحياة المعيشية والغلاء وتدني الرواتب إلى جانب الأزمات الغذائية وشح الأدوية ونقص مياه الشرب النقية، مما كان يهدد بقاءهم على قيد الحياة. فقد أصابت هذه العقوبات البنى الأساسية في مقتل.

وفي تقريرها الذي أصدرته اللجنة الدولية عام 1999 بعنوان "عقد من العقوبات" أوضحت موقفها الرافض لاستخدام العقوبات الاقتصادية ضد السكان المدنيين في أي نزاع. كما أكدت في مذكرة شفهية نقلت إلى فريق من خبراء الأمم المتحدة كان قد اجتمع للنظر في القضايا الإنسانية بالعراق في مارس/ آذار 1999 أن المعونة الإنسانية لا يمكن أن تكون بديلا عن الاقتصاد الكامل في أية دولة، لأنها لا تستطيع أن تلبي الاحتياجات الأساسية لاثنين وعشرين مليونا من السكان أو تكفل الصيانة لبنية أساسية تهالكت بأكملها.

وقد كان من نتائج هذه العقوبات ما عانت منه بشكل خاص كل الفئات الضعيفة في العراق وهي صغار الأطفال والحوامل والمسنين. فقد ارتفع معدل وفيات الأطفال في وسط العراق وجنوبه من 56 في الألف إلى 131 في الألف، وعاودت الدفتريا ظهورها لأول مرة منذ عشرات السنين. وتضرر أكثر من مليون عراقي من عواقب سوء التغذية. كما تدهورت حالة

المستشفيات ومراكز الرعاية الصحية لمستويات مفزعة.

وبطبيعة الحال لم تكن اللجنة الدولية لتكتفي بإعلان موقف دون الإسهام العملي في محاولة رفع المعاناة عن السكان، لذا بذلت قصارى جهودها للعمل، جنبا إلى جنب مع العراقيين لمحاولة إصلاح البنى الأساسية في مجالات مياه الشرب والصرف الصحي وتأهيل المستشفيات، فأسهمت منذ عام 1991 في إصلاح مائة وخمس وخمسين محطة لتنقية المياه، واتخذت تدابير عاجلة في مايو/آيار 1999 تهدف على المدى الطويل إلى ضمان تزويد السكان بما لا يقل عن 20 لترا يوميا للفرد بالإضافة إلى تقديم خدمات تتعلق بالمياه والصرف الصحي مستوفية للمعايير التي قررتها منظمة الصحة العالمية. وفي إطار هذه التدابير قامت بتركيب مضخات جديدة عند نقاط السحب من الأنهار لضمان القدرة على ضخ المياه إلى محطات التنقية. وقد أمكنها خلال عام 1999 إتمام 23 مشروعا خاصا بالمياه والصرف الصحي استفاد بها ثلاثة ملايين ونصف المليون من السكان. وفي مجال الكهرباء تدخلت اللجنة بإصلاح عشرين مولدا لتمكين محطات المياه من زيادة إنتاجها. أما على صعيد إعادة تأهيل المستشفيات فقد بذلت اللجنة قصارى جهدها في دفع عجلة تحسين أداء هذه المستشفيات والمراكز الصحية ودعم الأطباء بالمراجع والمعلومات الحديثة ومحاولة سد النقص الذي يشكون منه سواء في الأدوية أو المواد والأدوات الجراحية. وهو العمل الذي تواصل قبل وأثناء وفي أعقاب الحرب الأخيرة على العراق في مارس/ آذار 2003.

أضخم عملية إنسانية في 2003

مع توقعها باحتمال قيام حرب في مستهل عام 2003، قامت اللجنة الدولية برفع درجة استعدادها إلى الدرجة القصوى وذلك بتوفير كل الإمكانيات لتلافي حدوث أضرار إنسانية وخيمة للمدنيين والمقاتلين. وقد ترتب على ذلك زيادة أفراد طاقمها العامل بالميدان إلى رقم لم يسبق له مثيل. ومع بدء الحرب واشتداد حدة القتال، قامت اللجنة الدولية بأكبر عملية إنسانية في تاريخها، وتمكنت من الاستجابة للأوضاع الطارئة في كافة مجالات أنشطتها المتعلقة بالحماية والمساعدة. واستمر ذلك في أعقاب سقوط النظام في بغداد. لكن الانهيار الشامل لكافة أبنية الدولة العراقية، إضافة لانفلات الأوضاع الأمنية الذي فقدت اللجنة الدولية بسببه عددا من أعضائها العاملين، وما نجم عن الهجوم على مقرها في بغداد، أدى كل ذلك لتأزم أوضاع العمل الإنساني في هذا البلد بشكل عام، الأمر الذي اضطرت معه اللجنة الدولية إلى اتباع طريقة استثنائية للعمل هناك، وقد عني ذلك في عام 2004 تخفيض عدد موظفيها العاملين إلى 400 موظف يدعمهم فريق من المندوبين الأجانب الذين يعملون انطلاقًا من قواعد دائمة في شمال العراق وكذلك من خلال مهمات منتظمة من عمَّان في الأردن إلى بغداد والبصرة، وتقليص جانب من أنشطتها المبذولة على صعيد المساعدة المقدمة للعراقيين مع الحرص على الأولويات الضرورية.

المحتجزون

تركز اللجنة الدولية في العراق بشكل رئيسي على زيارة الأشخاص المحتجزين لدى القوات المتعددة الجنسيات ولدى السلطات العراقية، بهدف تفقد الأحوال المعيشية لهم ومعاملتهم وتمكينهم من ربط الاتصال مع عائلاتهم من جديد بواسطة رسائل الصليب الأحمر. لذا قام مندوبو اللجنة الدولية في 2004 بزيارات منتظمة في وسط العراق وجنوبه إلى أربعة مراكز للاحتجاز تديرها قوات التحالف وإلى مركز تحت مسؤولية الحكومة العراقية المؤقتة. كما سجل المندوبون بانتظام الأشخاص المحتجزين وأبلغوا عائلاتهم معلومات عن أوضاعهم. وحتى أواخر عام 2004 كانت اللجنة الدولية تزور أكثر من 7300 محتجز لدى القوات المتعددة الجنسيات وحوالي 1800 شخص محتجزين لدى الحكومة العراقية المؤقتة. وقد تبادل المحتجزون أكثر من 24600 رسالة مع عائلاتهم. كما زارت اللجنة الدولية في شمال العراق ما يزيد على 1200 محتجز في 26 مركزًا للاعتقال تحت مسؤولية السلطات الكردية المحلية. وتبادل المحتجزون أكثر من 2150 رسالة مع عائلاتهم. ووزعت أثناء هذه الزيارات مواد أساسية كمستلزمات النظافة والملابس. وعقب كل زيارة نقلت اللجنة الدولية ملاحظاتها بشأن معاملة المحتجزين وأحوالهم المعيشية داخل السجن مباشرة إلى سلطات الاحتجاز المسؤولة وطالبتها بتحسين الأوضاع كلما وحيثما كان ذلك ضروريًا. وعلاوة على زياراتها إلى أماكن الاحتجاز واصلت اللجنة الدولية تذكير جميع أطراف النزاع بواجبها المتمثل في احترام القانون الدولي الإنساني. فطلبت من الأطراف المعنية خاصة أن تحترم المدنيين وتعتني بالجرحى.

مساعدات الطوارئ

وبرغم القيود المفروضة عليها بسبب الوضع الأمني ناضلت اللجنة الدولية من أجل تقديم مساعدات اشتملت على إمدادات ومعدات طبية إلى المستشفيات التي يعالج فيها الجرحى ومرافق الصحة العاملة لخدمة المرضى، كما قدمت معونات أساسية إلى العائلات التي تشردت من جراء العمليات العدائية. ولمساعدة النازحين بسبب اندلاع القتال في النجف والفلوجة وزعت اللجنة الدولية طرود الأغذية والأغطية ومواد النظافة وأدوات الطبخ وصفائح الماء. إضافة إلى تزويدها لجمعية الهلال الأحمر العراقية بمواد الإغاثة لمساعدة ضحايا العنف في الفلوجة والنجف ومدينة الصدر وسامراء وتلعفر.

الماء والسكن

كان من شأن تصعيد العنف أن يؤدي إلى نقص في الماء وتدهور حالة مرافق الصحة في مناطق عديدة، وللرد على الاحتياجات الأساسية للسكان يقوم فريق من مهندسي اللجنة الدولية والمهندسين المعماريين والفنيين بدعم مجلس إسالة المياه المحلي كما يقوم في بعض الحالات بتصليح مباشر لمحطات إنتاج الماء ومعالجة المياه المحلية. وقد استمر في الوقت نفسه تنفيذ بعض المشاريع المتوسطة والطويلة الأمد كإصلاح محطات الصرف الصحي والمستشفيات ومراكز الصحة الأولية. ففي عام 2004 تم تحديد نحو ثلاثين من هذه المشاريع والبدء بتنفيذها. كما واصلت اللجنة الدولية نقل الماء إلى المجتمعات المحلية المحتاجة. وخلال العام وزعت 500 ألف لتر من الماء في ستين موقعًا بالعاصمة العراقية. وحتى شهر أغسطس/آب وزعت في سنوني/ خنصور 560 ألف لتر من الماء في اليوم كما تم تزويد مستشفيات في البصرة بعشرة آلاف لتر من الماء في اليوم منذ أبريل/نيسان.

التعاون مع الهلال الأحمر العراقي

ظلت جمعية الهلال الأحمر العراقية بشبكتها المنتشرة في ربوع الوطن وفروعها ومتطوعيها الشريك الرئيسي للجنة الدولية في العديد من عملياتها بالعراق. فبالإضافة إلى دعم جمعية الهلال الأحمر العراقية في جهودها لمواجهة حالات الطوارئ تساعد اللجنة الدولية والاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر هذه الجمعية على بناء قدراتها. وفي مجال البحث عن المفقودين تقدم اللجنة الدولية الدعم الفني والمالي إلى موظفي البحث عن المفقودين بجمعية الهلال الأحمر العراقية الذين يوزعون رسائل الصليب الأحمر ووثائق تسجيل المحتجزين لدى السلطات. كذلك تقوم اللجنة الدولية بدعم جمعية الهلال الأحمر العراقية في برنامجها للتوعية بمخاطر الألغام بهدف التقليل من عدد الإصابات والوفيات الناجمة عن بقايا الحرب المتفجرة في هذا البلد المنكوب ■

مشاهد من رحلة إلى بغداد

من الرابع عشر من مارس/ آذار إلى الثالث من أبريل/ نيسان 2005، قامت الناشطة النسوية المصرية عزة كامل برحلة عمل إلى العراق. كان الهدف من هذه الرحلة هو القيام بدور في تنسيق الأنشطة الخاصة بالتدريب والدعم للمنظمات النسائية بالعراق بهدف دعم هذه المنظمات وتقوية دورها في المشاركة السياسية والإعداد لصياغة الدستور. في هذه الرحلة كان لكاتبة هذه السطور، إلى جوار قيامها بمهمتها الإنسانية، مشاهداتها في العاصمة العراقية التي ننشر بعضا منها في هذه الصفحات.

الصورة الفوتوغرافية: أ ف ب

عزة كامل*

(1) ذُبحنا مرتين

ذهبت لزيارة مخيم «الجادرية» بجامعة بغداد، وهو المخيم الذي يقيم به المرحلون من الفلوجة. كنت مع مجموعة من النساء العراقيات. وكان في استقبالنا رئيس الجامعة وآخرون.

عند مدخل المخيم لفت نظري الأطفال الذين يبكون بصوت عال والآخرون الذين يمسكون بأذيال أمهاتهم بملابسهم المهملة ونظراتهم البائسة.

في هذا الموقع، تنتشر الخيام في كل مكان. لوهلة اعتقدت أنني في مخيم فلسطيني وسط بيروت، فقد تحولت ساحة جامع المصطفى فى جامعة بغداد إلى مخيم كبير، نصبت فيه الخيام لتضم كل خيمة أسرة أو أكثر، من الذين شردتهم وهدمت بيوتهم الحرب، وتركوا للجوع ولبرد لا يرحم، فالخيمة لا تقى من البرد ولا تحمى من المطر، ولا تزيل الخوف والرعب من المستقبل المظلم لهؤلاء الذين قذفت بهم حمم المعركة بعيدا عن مدينتهم، وراحت الحكايات تتدافع من أفواه الناس، كانت دموعهم تسبق كلماتهم، وتواصلت حكايات النساء:

ـ "**ما قدرناش على الحرب، تفرقنا بحثا عن مكان نلجأ إليه، تفرقنا في أماكن كثيرة، نساء، شيوخ، أطفال، عمال، طلاب، موظفين، حرفيين، أغنياء، فقراء، سكنا البيوت المهجورة والجوامع، افترشنا العراء، خرجنا بملابس وأغطية قليلة، متنا من البرد وعندما حل الشتاء تعذبنا من الجو القارس، وعذبنا المطر أكثر، الرطوبة سرت في أجسادنا، والأطفال مرضوا، وبعضهم مات بسبب قسوة هذه الظروف!**"

إحداهن، وتدعى "**أم حسين**" شكت حالها:

ـ "**ابني يعمل موظفا.. راتبه لم يصرف لأكثر من شهر، وأبناؤه لا يذهبون إلى المدرسة، حاجيب المصاريف منين وبيوتنا راحت، من يعوض علينا، العوض على الله، بنينا بيتنا بعرقنا وشقانا لسنين وأيام. لا يوجد مستقبل أمام عيالنا الذين حرموا من المدرسة. أشكى لمين غيرك يارب؟!. الحرب ذبحتنا والذل والإهانة وقتل كرامتنا ذبحنا، ذبحنا مرتين**".

لم أستطع فتح فمي، لم أستطع أن أتوحد معهم، من أنا ومن أكون، أنا التي حللت ضيفة في نفس العاصمة، وأنام بفندقي في فراش نظيف، ومكان جميل، لا تنقصه الأغطية التي تحمى من البرد، ولا الطعام الذي يكفى الكثير، تخيلت ابنتي **عائدة** وابني **مصطفى** ضمن هؤلاء الأطفال وهما يبكيان ويصرخان!، وهما لا يجدان طعاما كافيا ولا مأوى آمنا ولا أغطية تقيهما من البرد، انتابتني رعشة شديدة وشعرت أنني في صحراء قاسية البرودة، وأنا عارية بدون أي شيء يحميني من الصقيع، تخيلتني مهانة ومشردة، وأخذت الرعشة تزداد، ووجدت إحدى النساء اللاتي صحبنني تغطيني بشال قائلة:

ـ **كفاية كده، يالا نمشى!**.

(2) أحمد يرسم الحرب

كان هو الطفل الوحيد المتواجد بالقاعة بين خمسة وثلاثين امرأة ورجل جاءوا لحضور هذا اللقاء. كانوا قد أتوا للمشاركة في مناقشة حول "المشاركة السياسية للنساء" وعلاقتها بصياغة الدستور العراقي والنهوض بالعراق، وتصادف أن يكون ذلك اليوم هو يوم أربعينية الإمام الحسين، حيث زحف الشيعة العراقيون في الشوارع بملابسهم السوداء وهم يخبطون على صدورهم وأجسادهم، كانوا يمارسون هذه الطقوس لأول مرة منذ زمن طويل، فقد خرجوا على هذا النحو كأنهم ينفسون عن اللهيب الذى بداخلهم ويبتهلون للحسين، كان **أحمد** قد جاء إلى هذا اللقاء بصحبة والده، كانت عيناه حائرتين. تقدمت نحوه وسلمت عليه وقبلت وجنتيه وأخذته من يده وأجلسته على كرسي وفكرت للحظة ماذا أفعل له؟. وخامرتني فكرة أن أعطيه ورقة وقلما، قلت له:

ـ **ارسم يا أحمد. أتحب الرسم؟**

أعطيته ثلاثة أقلام ملونة أحمر وأخضر وأسود، هي كل ما لدى، وتركته لأتفرغ للآخرين. وانخرطنا جميعا في مناقشة قضية المشاركة السياسية للنساء، فتضاربت الآراء واحتدم الجدل، خاصة بين الرجال والنساء الذين أتوا من أربيل، والبصرة، والنجف، وبابل، والحلة، والفلوجة، والسليمانية، وتخلل النقاش الحديث عن الوضع السياسي والأمني في العراق مختلطا بذكر أسماء **دونالد رامسفيلد** وزير الدفاع الأمريكي، و**بول بريمر** الحاكم المدنى فى العراق، و**كوندوليزا رايس** وزيرة الخارجية الأمريكية، التي أسموها المرأة الحديدية، وبالطبع ورد ذكر **مقتدى الصدر**، و**السيد السيستاني**. وتداخلت الأسماء، والأدوار، والمسؤوليات. كان الجو عاصفا، ولكننا رسخنا فكرة الاستماع لآراء كل شخص مهما كانت درجة اختلافه مع آراء غيره.

عندما انتهينا، نظرت بطرف عينى **لأحمد** فوقع نظرى على لوحة بها رسم، ألوانه تمتزج بين الأحمر والأسود، ولم يكن للون الأخضر بها مكان، ماذا رسم **أحمد** الطفل ذو الأعوام الخمسة؟: طائرات، وصواريخ، ونيران، ودبابات، ودخان أسود، وأشلاء بشرية، الورقة البيضاء تلطخت بالدماء، ماذا جرى يا **أحمد**!؟، أي ذاكرة تحمل؟ أي خيال؟ أي رؤى؟!

يا **أحمد** العراقي، انفطر قلبي على بغداد وعليك، فماذا فعلت الحرب بالأطفال؟!

تثاقل جسدي حين هممت بلم حاجياتي وأدواتي، مر الجميع يسلمون علي ويودعونني، البعض من النساء قبلننى، ولكني كنت في حالة غريبة فلم يكن بمقدوري أن أرى أمام بصري سوى لوحة **أحمد** بدباباتها، وصواريخها، وأشلائها البشرية، ونيرانها. كانت تتعالى إلى مسامعي من ذلك الرسم الذي خطته يد الطفل أصوات الأجساد وهي ترتطم على الأرض وتتمزق في الهواء، وأحسست بغصة في حلقي.

عند عودتي للفندق، استقبلني زملائي في السكن، قال لي **عصام** "**مرحبا يا عزة كيف كان حالك اليوم؟**"، لم أكن أدري أنني أخذت معي لوحة **أحمد**، أجبته وأنا أمد يدي له باللوحة: "**هكذا كان يومي يا عصام**"، ولم أتمالك نفسي وأخذت أجهش بالبكاء. ربت **عصام** على كتفي واغرورقت عيناه بالدموع وطبع قبلة على جبيني وحار ماذا يقول!، اختطف **وائل** اللوحة من يدي وقال: **لمن هذه؟**، قلت: **أحمد خمس سنين** قال: **يا إلهي، أي جيل يشب في العراق الآن؟** وأردف: **سآخذ هذه اللوحة وأصورها وأنسخها على الكمبيوتر، يجب أن يراها أطفال العالم الآخرون!**.

شعرت أنني مرهقة للغاية، فدخلت إلى حجرتي بتثاقل، وانتابني حنين غريب إلى ابني **مصطفى**، فتحت هاتفي النقال وحادثته:

●●●

(*) المديرة التنفيذية لمركز وسائل الاتصال الملائمة من أجل التنمية.

ـ ماذا تفعل الآن يا مصطفى؟.
ـ أتدرب على البيانو يا ماما.

(3)
لوحات بعطر بغداد

كنت قد انتهيت من عملي مبكرا، في يوم تالٍ، فعدت إلى الفندق والتقيت بالأصدقاء، **عصام**، **وعزت**، **ووائل**، حكى كل واحد منا باختصار عما تم في يومه قال **عصام** عايزين نروح نتفرج على **فن رخيص**!.

استوقفتني عبارة "فن رخيص"، **ماذا تقصد يا عصام**؟، قال **عصام**: **آه، نسيت أنك تحبين الفن الراقي، باختصار يا ستي سنذهب للفرجة على معارض ومحلات تعرض الفنون التشكيلية، وهناك لوحات لفنانين عراقيين معروفين لكنها غالية الثمن، وهناك بعض اللوحات الزيتية معمولة بشكل سريع (نص ـ نص)، وعزت هو الذي أطلق على هذا النوع اسم "الفن الرخيص"**، قلت له: "**تعال نخرج وخلاص يا عصام، على شرط أن نخرج بدون حراسة**"، قال: "**إذن سأهاتف صديقا لي من البصرة هو موجود الآن في بغداد ليأتي ويأخذنا بسيارته بدون أن يعرف أحد، وإذا عرفوا نقول لهم أننا خرجنا نتمشى في محيط الفندق**".

فرحت كثيرا لأني كنت أريد أن أتنسم هواء بغداد، وأخذتنا سيارة الصديق البصري إلى حي الكرادة. كانت الساعة حوالي السابعة مساء. وعند وصولنا لهذا الحي أصابتني الدهشة، كان الشارع يعج بالناس، والباعة يفترشون الأرض ببضائعهم المختلفة أمام المحلات التي تبيع كل ما يخطر على بال إنسان. كانت أصوات الباعة وأبواق العربات في كل مكان، ولاحظت أن هذا الزحام الشديد يذكر بزحام شارع الموسكي وميدان العتبة في القاهرة، فقد كانت الحياة تدب في كل مكان، الرجال والنساء يسيرون معا في الشوارع مصطحبين الأطفال، لا يوجد أثر عليهم للخوف أو الرعب أو عدم الأمان، نبهني **عصام** لأنني سوف أصطدم بإحدى العربات الخشبية لأحد الباعة فابتسمت وقلت له: "**هذه هي بغداد التي أريد أن أراها**". دخلنا واحدا من المحلات التي تعرض لوحات فنية بعضها أصلي وبعضها مقلد، تجولت في المحل أتفرج على الرسومات والألوان والحياة التي بداخلها، ثم دخلنا محلا ثانيا وثالثا ورابعا، وبعد ذلك نزلنا بضع درجات سلم لنفق تحت الأرض به عدد هائل من محلات الفن الرخيص والجيد، تحدثت مع أصحاب المحلات، هم أنفسهم فنانون، تحدثنا في تاريخ الفن العراقي وفن اللوحات وبالطبع في الأسعار، وانتهى الأمر بنا بأن اشترينا أربع لوحات، ثم جلسنا نحتسي الشاي في أحد المقاهي ونتحدث في أمور الحياة (العراقية بالطبع)، وكيف أن بغداد تعج بالفن والفنانين وكيف أنه على الرغم من قسوة الظروف لم تتمكن الحرب من أن تقتل الإبداع.

الصورة الفوتوغرافية / أ ف ب

كنت أمسك باللوحات جيدا كأنني أقبض على قطعة من بغداد، وضبطني **عزت** وأنا أشمها، قال لي: "**إيه يا عزة ريحة الورق هي نفسها في أي مكان**"، قلت له: "**لا يا عزت إنه ورق بغداد**"!.

رجعنا إلى الفندق، ذهب كل منا إلى حجرته ليغتسل أو يجري بعض المكالمات لذويه، واتفقنا أن نلتقي في شرفة غرفة **عزت** لنمضي بعض الوقت معا.

كانت الليلة صافية، والقمر ينشر أشعته على سماء وضواحي بغداد، جلسنا نتسامر ونضحك ونلقي ببعض النكات التي كانت في معظمها مصرية بالطبع، وكان **عزت** يقوم بتحضير الشيشة (النرجيلة) فهو مغرم بتدخين الشيشة ويعشق التحضير لها، كانت الشيشة تمر على الجميع، لم أشاركهم لأنني لا أقدر على جذب أنفاس دخانها الثقيل لكنني شاركتهم الضحكات بالطبع، سرح كل منا لحظة في حاله وحال أسرته، وحال العراقيين، وفي أثناء ذلك سمعنا دوي طلقات عنيفًا، وشاهدنا أضواء كتلك التي تظهر عند إطلاق الصواريخ فقال **عزت** "**الجماعة بدأوا**"، كانت الصواريخ تنطلق باتجاه الـGreen Zone "أي المنطقة الخضراء" التي بها الأمريكيون، ولاحظت أننا في متابعتنا لهذه الاشتباكات، لم نكن نحس بخوف أو رعب، لأن هذا بدا لنا مألوفا كل ليلة، ولكن كان الحزن يخيم علينا وتذكرنا سقوط بغداد في التاسع من أبريل 2003.

هل سقطت بغداد؟

سؤال ما زال معلقا في فكري؟!.

(4) مناضلات نسويات

دعتني **هناء .إ** إلى اجتماع في منزل السيدة **صفية .س** التي عينت سفيرة للعراق في القاهرة. في اليوم المحدد للاجتماع ذهبت إلى "منظمة الأمل" وهي المنظمة التي تترأسها **هناء**. وفي مقر هذه المنظمة كانت في انتظاري **رباب**، وهي إحدى الناشطات النسويات، ومنسقة شبكة النساء العراقيات، وأخذتني في جولة داخل المنظمة وعرفتني بالعاملين هناك، وفي أثناء ذلك حضرت **بسمة الخطيب** منسقة مشروعات الـ UNIFEM صندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة، والتي رافقتني للذهاب معا لهذا الاجتماع، كانت **هناء** في هذه الأثناء تترأس اجتماعا داخل المنظمة من أجل تيسير العمل، لذا طال انتظارنا حوالي نصف الساعة لحين انتهائها من اجتماعها، وانشغلنا كل هذه المدة بالتعليق على الـ New look الخاص **ببسمة** فقد كانت تشع حيوية وفرحا بالإضافة إلى قصة شعرها الجديدة وملابسها الأنيقة وتزينها البسيط الدافئ، ثم خرجت علينا **هناء** بابتسامتها العذبة وطريقتها

الصورة الفوتوغرافية / أ ف ب

المهذبة في الترحيب والتي تجعلك تحس بأنك تعرفها من زمن طويل، **فهناء** واحدة من الناشطات النسويات اللاتي يمتلكن رؤية جذرية تجاه قضايا المرأة والمجتمع. وركبنا جميعا سيارة واحدة واتجهنا إلى منزل السيدة **صفية . س** وهو في منطقة يسكن بها جميع الوزراء والوزيرات والمسؤولين الكبار بالدولة. وهذه المنطقة محاطة بسياج إسمنتي ضخم وبواباتها عليها حراسة (أمريكية) مشددة. واستغرقت سيارتنا لكي تمر من خلال الحراس بعد التفتيش على إحدى البوابات حوالي ساعة تقريبا، ولاحظت أن البيوت كلها متشابهة، فعلى ما يبدو أن هذه البيوت أو الفيلات كانت تُعْطَى للمسؤولين الكبار ولها نفس الطراز، فكل بيت تحيط به حديقة تكتظ بعدد من المقاعد. واستقبلتنا سيدة المنزل **صفية** بابتسامة كبيرة وترحيب جميل وأخذتنا إلى الحديقة لتقدمنا إلى عدد من النساء كان من بينهن **ميسون . د** رئيسة التجمع النسائي المستقل، ووزيرة الدولة لشؤون المرأة السيدة **نيرمين . ع**، ووزيرة الهجرة والسكان، ووزيرة العمل، وبعض الفنانات التشكيليات، وشخصيات مختلفة تمثل منظمات المجتمع المدني.

بدأ الاجتماع بكلمة ترحيب من السيدة **صفية** التي أكدت أن هذا اللقاء الهدف منه مناقشة تقوية وتدعيم المرأة في مجالات عديدة منها الحقوق الدستورية للمرأة، خاصة ونحن على أعتاب صياغة الدستور الجديد وأضافت: **إن المرأة العراقية استطاعت أن تحدد أولوياتها من اليوم الأول، فلم يفرق بين النساء أي من الأوضاع القومية أو الحزبية أو الطائفية أو أي أمور شخصية ذاتية، فالمرأة العراقية استطاعت أن تنتصر، وهذه طبيعة المرأة، كما تمكنت أن تخرج بتوصيات كفيلة بأن تنهض بأوضاع النساء العراقيات. وهكذا كان نجاحنا عندما وقفت مظاهرات المرأة العراقية تقول لا للقرار 137 وذلك تحت التهديد ورغم الظروف الأمنية التي نعيشها وقد وصل صوتنا لتخصيص نسبة للنساء في قانون الدولة العراقية وهذا هو أول لوبي نسائي يتشكل للتأثير على الموقف السياسي العراقي وقد تبنته القوى الديمقراطية وحصلنا على 25٪ وهي ليست غاية طموحنا ولكنها نتيجة ممتازة.**

ثم دعت السيدة **صفية** الجميع للمناقشة والحوار وقد طلبت من الجميع السماح لها بإدارة الجلسة حتى تكون منظمة.

في هذه المناقشات تكلمت الوزيرات. وتكلمت **ضحى . ر**، و**هناء . إ**، و**رجاء . خ**، و**ميسون . د**، وغيرهن، وكانت مناقشة سياسية رائعة.

ثم دعونني لأن أدلي برأيي. وترددت بعض الشيء، ثم تكلمت، وأحسست بالتوحد معهن، أولا لكوني امرأة، وثانيا لأن لي موقفا نسويا تجاه العالم، وقد أحسست بأني امرأة مصرية وعراقية في آن معا، أتحدث مثلهن، وأناقش نفس الأفكار التي تشغل فكر النساء المصريات، إنه عالم واحد، عالم صغير، ولكن النساء قادرات على إعادة صياغته من جديد بحيث تكون فيه الكرامة والإنسانية والعدالة والإنصاف بين الرجال والنساء هي المعادلة الوحيدة التي تجعله يستمر في الحياة بملمح إنساني جميل.

اتفق الجميع على أهمية العمل معا والتأثير على صانعي القرار في أن يكون الدستور ديمقراطيا، علمانيا، وغير طائفي. وعقب المناقشة التي استغرقت حوالي ساعتين، دعتنا السيدة **صفية** لتناول وجبة عشاء خفيفة، وكانت فرصة أيضًا للنساء لأن يضحكن ويتندرن ويعبرن عن مشاعرهن بلا خوف أو خجل.

عدنا إلى السيارة مرة أخرى، وتذكرنا **آمال المعملجي** التي تم اغتيالها في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني 2004 على يد الإرهاب، وهي التي كانت تطالب بمحاكمة الإرهاب علنيا في التليفزيون. **آمال** التي شاركت في حركة المجتمع المدني وهي التي قالت لا مع نساء أخريات لقرار 137 والتي كانت بمثابة الدينامو المحرك للكثير من فعاليات الحركة النسائية في بغداد والسليمانية والبصرة والنجف كما كانت منشطا أساسيا لعصف الأفكار وتصويب المبادرات ورسم الخطط والفعاليات. كانت **آمال** تطمح أن يتحقق الأمن الإنساني كأساس في عملية إعادة بناء العراق الجديد وأيضا في تفعيل المشاركة السياسية للمرأة في مواقع صنع القرار. وقد أدانت **آمال** الإرهاب والعنف بشدة، ونادت بالحوار والعقلانية بين مختلف التيارات الفكرية، وبالتمسك بفرض سلطة القانون على جميع المواطنين دون تمييز.

وقد اغتيلت **آمال** على يد الإرهاب والتعصب في ظل عدم سيادة القانون.

تنهدت **هناء** وقالت: "**لن ينال الإرهاب من طموحاتنا المشروعة في بناء عراق عزيز معافى، وسيأتي اليوم الذي يحاكم فيه الذين سرقوا البسمة من شفاهنا وجعلوا مكانها غصة في القلوب والنفوس**".

ـ عزة ارجعي مرة أخرى إلينا نتكاتف سويا كنساء عربيات، نريد أن ننتصر وأن نصنع معا عالما جميلا إنسانيا. هبطت من السيارة، ومشاعري مختلطة، كانت مزيجا من مشاعر فرح بهذه الشخصيات النسائية الجميلة المناضلة، ومن مشاعر حزن على النساء الشهيدات، وعلى وضع العراق الذي يريدونه ممزقا، طائفيا، جريحا، حزينا. ولكني على يقين أن العراق سيصنع بشكل مختلف لأن هناك مناضلين ومناضلات ما زالوا يكافحون ويؤمنون بأن الظلم يوما ما سينتهي ولأن بلد النهرين والحضارة الآشورية والأمورية والتاريخ العتيد الذي يرجع إلى ستة آلاف عام لا يمكن أن يمحى أو يتلاشى شعبه ■

العراق : عامان عصيبان في تاريخ العمل الإنساني!

خلال عامين تواصلت حوادث مؤسفة، راح ضحيتها عدد من العاملين باللجنة الدولية في ملابسات غريبة لم تكن تعني إلا أن العمل الإنساني المستقل مستهدف باعتداءات مباشرة.

المتابع للمشهد العراقي، كما تقدمه الخطابات السياسية للقوى المتناحرة في هذا البلد، وكذلك الخطابات السياسية التي تضج بها الأروقة والمحافل الدولية، إضافة إلى الصورة العامة التي تقدمها وسائل الإعلام العالمية والعربية، يجد أن البعد المتعلق بالشأن الإنساني في هذا جميعه يكاد يكتنفه الغموض ومن ثم لا يأتي ذكره، إلا أحيانا، تحسرا على أوضاع الضحايا، أو من قبيل ذر الرماد في العيون، أو لسد فجوة في الشكل العام للخطابات المعلنة، دون التوقف طويلا، وبحزم، أمام ما يجري من تفاقم للأوضاع المأساوية هناك، خصوصا فيما يتعلق بحماية المدنيين.

على أرض الواقع يبدو المشهد كما لو أنه خرج تماما من إطار ضوابط القانون الدولي الإنساني، أو الضوابط الإنسانية (سمها ما شئت!) المعترف بها من كل الثقافات وكل الدول على اختلافها، ولسنا نغالي إذا قلنا أننا إزاء وضع خطير في ذاته ومهدد على نحو كارثي، بفعل ما يمارس فيه من فظائع، وبفعل قابليته للتكرار في مشاهد النزاعات المحتملة بالقرن الواحد والعشرين، التي تنذر بالانفلات وشيوع الانتهاكات والفوضى على نحو لا يمكن إيقافه، وذلك في ظل استمرار العراقيل التي توضع أمام العمل الإنساني المستقل ودوره الذي لا غنى عنه.

فكيف وصلت الأمور إلى هذا الحد المستعصي على التحكم؟

الإنسانيون بين شقي الرحى!

مع انتهاء العمليات القتالية الكبرى بالعراق في نهاية النصف الأول من أبريل/ نيسان 2003، وجد العاملون بالمجال الإنساني أنفسهم في وضع المقاتل الثالث بين طرفين أولهما قوات الدول المتحالفة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

والطرف الثاني حالة من الفوضى الضاربة أطنابها في كل شيء على امتداد الرقعة الجغرافية لبلاد الرافدين. وكان من المفترض مع انتهاء العمليات القتالية الكبرى أن تتواصل العمليات الإنسانية الكبرى لمساعدة الضحايا، وإصلاح البنى التحتية لخدمة المواطنين

© اللجنة الدولية للصليب الأحمر

وسد احتياجاتهم في مجالات المياه والعلاج والغذاء، إضافة إلى أنشطة الحماية الضرورية للضحايا والأسرى والمحتجزين. لكن الرياح أتت بما لا تشتهيه السفن. فقد تفاقمت الأوضاع الأمنية التي حملت على الاعتقاد، في جانب منها، بأن هناك حربا أخرى توازت مع استمرار عمليات العنف الدائر، وهي الحرب التي شنت ضد العمل الإنساني وضد رموز الإعلام.

فيما يخص الإعلام، بلغت الحوادث المؤسفة مبلغا راح ضحيته عدد من الصحافيين والمهنيين الإعلاميين في تواريخ متفرقة، أما بالنسبة للعمل الإنساني فقد بلغت هذه الحرب ذروتها في الاعتداءين اللذين دبر أولهما لقصف مبنى الأمم المتحدة بالقنابل، واستهدف الثاني تدمير مقر اللجنة الدولية للصليب الأحمر بسيارة مفخخة في السابع والعشرين من أكتوبر/ تشرين الأول 2003، وهو العدوان الذي راح ضحيته اثنان من العاملين باللجنة الدولية هما: «دكران هاغوبيان، وزهير عبدالله أحمد، إضافة إلى عدد من المدنيين العراقيين.

قبيل ذلك، وخلال الأشهر الخمسة التي سبقت محاولة الاعتداء على مقر اللجنة الدولية في بغداد، تعرض أفراد من بعثة اللجنة الدولية لحادثين راح ضحية أولهما أحد المندوبين وهو فاتشي أرسلانيان، الذي ساقه قدره للوقوع بسيارته في مرمى النيران، وراح ضحية الحادث الثاني مهندس سيريلانكي هو «ناديشا يساسري رانموتو» الذي قتل غدرا وعن عمد أثناء تأديته لعمله عندما تم إطلاق النار على السيارة التي كان يستقلها مع زميل آخر على طريق الحلة ـ بغداد، وكانت موسومة بشارة اللجنة الدولية للصليب الأحمر المعترف بها كشارة للحماية من مائة وواحد وتسعين دولة!.

وكان من شأن هذه الممارسات إعاقة تدفق العمل الإنساني المستقل المقدم للعراقيين، وهو ما تمت ترجمته على أرض الواقع في الوضع الذي وجدت اللجنة الدولية للصليب الأحمر نفسها مرغمة عليه عندما أوقفت جانبا كبيرا من أنشطة المساعدة التي تخدم العراقيين، كمشروعاتها في مجالات توفير مياه الشرب والإصحاح وبالتالي قامت بقصر عملها على أنشطتها في مجال الحماية إلى الحد الذي يضمن تقديم الحد الأدنى الضروري للضحايا من خلال متابعة زيارات المحتجزين في السجون العراقية، وتقديم الدعم المادي والتقني للمستشفيات وللجمعية الوطنية للهلال الأحمر.

مع ذلك تواصلت هذه الحوادث المؤسفة، ففي الثالث عشر من يناير/ كانون الثاني 2005 اختفى أحد السائقين العراقيين الذين يعملون مع اللجنة الدولية عقب انتهاء إحدى مهمات الحماية المتعلقة بزيارة السجناء في سجن أبو غريب، وتم العثور على جثته مقتولا في اليوم التالي في ملابسات غريبة لم تكن تعني إلا أن العاملين مع اللجنة الدولية مستهدفون باعتداءات مباشرة.

بيئة صراعية معقدة

يتردد كثيرا لدى الإنسانيين، من خلال ما يصدرونه من بيانات وتحليلات للوضع الراهن على صعيد استهداف حيز العمل الإنساني المستقل بضعة عناصر يمكن لنا إيجازها فيما يلي:

● البيئة الجديدة للنزاعات، والمعني بها حالة الفوضى التي اندلعت مع نهاية الحرب الباردة وأسفرت عن تنامي النزاعات الداخلية الطائفية والعرقية التي ربما كانت كامنة في ظل أوضاع عالمية يميزها تعدد الأقطاب، وهي البيئة التي نمت فيها ظاهرة ما يسمى بخصخصة الحرب وظهور أمراء الحرب الجدد الذين يخوضون النزاعات لحساب أهدافهم الخاصة.

● بروز العديد من المنظمات الإنسانية العاملة وفق استراتيجيات متنوعة، خلال ربع القرن الأخير، على نحو يصعب من وضع العمل الإنساني المستقل، ويحد من قدرة المراقبين على التمييز بين الأجندات المختلفة لهذه المنظمات، بما جعل ساحة العمل الإنساني أشبه ما تكون بسوق عكاظ يختلط فيها الحابل بالنابل، ناهيك عن الشكوك التي تساور البعض إزاء بعض هذه المنظمات وأدوارها وطرق تمويلها وأوجه الإنفاق التي تصرف فيها هذه الأموال.

● الخلط الحادث على صعيد الوضع الدولي بين السياسي والعسكري والإنساني، وهو خلط تحمل الجماعة الدولية وزره ويحصد فيه العمل الإنساني المستقل شروره، بفعل عدم تحديد التخوم الواضحة بين المجالات الثلاثة، وعدم وضوح الرؤية في تحديد المهمات، وغياب التنسيق المطلوب للعمل الإنساني بعيدا عن محاولات استغلاله في المجالين الآخرين.

● البيئة المعقدة التي خلقتها سياسة مكافحة الإرهاب في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر 2001، وما جلبه ذلك من زيادة حدة الاستقطاب والتوتر على الصعيد الدولي، والذرائعية التي اتسمت بها مواقف بعض الدول لفرض توجهاتها وتجريد خصومها من الحماية الإنسانية التي يكفلها القانون.

● محاولات بعض الدول المانحة لاستخدام العمل الإنساني كأداة لتنفيذ سياساتها الخارجية. الأمر الذي أصبح بمثابة حصار يمسك بخناق العمل الإنساني المستقل، ويضيق من هامش حركته.

● فظاعة الانتهاكات المرتكبة من قبل بعض الدول التي أسهمت في وضع القانون وبسط قواعد الحماية الإنسانية!، الأمر الذي أسهم في جعل الحديث عن المعايير القانونية التي تطبق على الجميع نوعا من الكيل بمكيالين لدى البعض ونوعا من اللغو لدى البعض الآخر، الذي وجد في هذا فرصة لممارسة الانتهاكات بدوره. (يمكن هنا تأمل حالة ●●●

"يبدو أن البعض يعتقدون أن تهديد الإرهاب يسوغ إضعاف القانون الدولي. وحجتهم أن على القانون أن يخدم بالدرجة الأولى الحاجات الأمنية للدول وأن الحماية القانونية الممنوحة للناس ضد الإساءة لكرامتهم تحتاج إلى إنقاصها لإيقاف العمليات الإرهابية. ونحن لا نتفق مع هذا (...) ولن نقبل أبدا بإضعاف الأحكام القانونية التي تحمي حقوق الأشخاص الذين يقحمون في النزاعات المسلحة".

جاكوب كيلنبرغر
رئيس اللجنة الدولية

●●● الفعل وردود الفعل المتعلقة بأوضاع السجناء العراقيين في سجن أبو غريب وباقي السجون العراقية، وكذلك وضع المحتجزين في سجون غوانتانامو).

● الموقف المتعمد من جانب بعض القوى المتناحرة للربط بين المنظمات الغربية المستقلة العاملة في المجال الإنساني وبين الأجندة السياسية والعسكرية لقوات الاحتلال، (وهو ما يعتقد أعضاء اللجنة الدولية للصليب الأحمر أنه كان أحد الأسباب وراء استهداف عملهم بالعراق).

ولا يخفى على أحد بطبيعة الحال أن كل هذه العوامل متضافرة أسهمت في صنع أزمة العمل الإنساني بالعراق، وأسهمت بالدرجة الأولى في مفاقمة أوضاع الضحايا العراقيين وزيادة آلامهم، وكذلك في حرمانهم من جهود الجهات التي أناط بها المجتمع الدولي مهمة التخفيف عن آلامهم.

العمل الإنساني وسياسة صيد الساحرات

حفلت ساحات الجدال في المنطقة العربية خلال العامين الماضيين بالكثير من المساجلات التي أدلى فيها الكثيرون بدلوهم، سواء في الصحافة السيارة أو بالقنوات الفضائية أو حتى على مواقع الإنترنت. ولعل القاسم المشترك الأعظم من وجهات النظر التي طرحت في هذه المعارك كان ينصب على ما يجري بالعراق.

ولسنا هنا في معرض الدخول في حوار حول ما أثير في هذه المساجلات من أفكار حول مستقبل العراق، أو مصير الأطراف المختلفة بالنزاعات المحتدمة في هذا البلد، بقدر ما نحن معنيون، وبالدرجة الأولى بغياب وضوح الرؤية، لدى المختصمين على اختلاف فرقهم، في فهم ضرورة العمل الإنساني، وبالتالي لم نسمع صوتا يدعو لدعمه وتسهيل مهمته، على الرغم مما تنقله الصور والأخبار المذاعة بالعالم أجمع حول معاناة المدنيين، وحاجتهم للمساعدة والحماية القانونية.

بل إننا لا نغالي إذا قلنا بأن جانبا من هذه المساجلات شابه الخلط الواضح في بعض الأحوال، كالقول من جانب البعض بأنه لا يفرق بين الصليب الأحمر وبين قوى الاحتلال، أو في ادعاء البعض بأن العمل الإنساني يخدم أهدافا تبشيرية أو يروج لأفكار هدامة، أو أنه متورط بالتجسس لقوى خارجية!! كما أشار إلى ذلك الأستاذ أحمد عبد المجيد بمقاله «شيء من تجربة مستمرة» في العدد التاسع والعشرين من مجلة الإنساني (هنا نجد تجنيا واضحا لا يفيد أحدا ولا يساعد قضية). وهذه الافتراءات التي من شأنها أن تجد رواجا لدى

الصورة الفوتوغرافية: أ ف ب

إيمانًا منها باستقلال وحياد عملها، رفضت اللجنة الدولية التواجد تحت الحماية العسكرية لأي طرف من الأطراف.

سياسة الاستقطاب، والحرب على الإرهاب فاقمتا خطورة بيئة النزاعات الجديدة.

البعض تتسبب عن عمد أو جهل في المزيد من محاصرة وتحجيم العمل المقدم للضحايا، أو التحريض على إضعافه، بانتهاجها لما عرف قديما بسياسة صيد الساحرات. وهي سياسة تهدف إلى إبعاد الإنسانيين لإخلاء الساحة تماما للمزيد من تفشي الفوضى!

العراقيون والدور الغائب

في أعقاب حادث الاعتداء على مقر اللجنة الدولية في بغداد، اتخذت اللجنة موقفا رفضت فيه الحماية العسكرية من جانب أي طرف من الأطراف، إيمانا منها بأن القائمين بالعمل الإنساني لا يحميهم إلا تفهم طبيعة عملهم وتوفر الرغبة في استمراره من جانب الجميع. وباتخاذها هذا الموقف، كانت اللجنة الدولية تضع خطا فاصلا بينها وبين أي طرف في النزاع. وكان من المتصور في تلك الأثناء أن تقابل النخب العراقية الفاعلة، على اختلافها، هذا الموقف بالترحيب، وأن تثمنه وتحتشد لمؤازرته كل الطاقات في كافة المجالات، نظرا لما يمثله استمرار العمل الإنساني من فائدة للجميع. لكننا لم نشهد تآزرا من هذا النوع. ومن ثم توارت فرصة فريدة كان من الممكن فيها أن ينتصر العراقيون على اختلاف فرقهم لإنسانيتنا جميعا في مواجهة الفوضى، فكانت النتيجة المؤسفة التي وصل إليها الوضع الآن وهي المزيد من حصار الفوضى لحركة العمل الإنساني، ولقدرته على الوصول إلى الضحايا، ناهيك عن استفحال مأساة الضحايا أنفسهم، مع استمرار حالة اللامبالاة التي تشي بأن الكثيرين ربما يعتقدون أن مسألة مواصلة أو عدم مواصلة العمل الإنساني بالعراق أمر يخص القائمين به فقط!

صحيح أن تفاصيل مهمة القيام بالعمل الإنساني هي واجب على الإنسانيين تحمل أعبائه، ولكن القيام بهذا الواجب يتطلب إسهاما من الجميع، لا بالمشاركة فيه بالضرورة، وإنما بالعمل على توفير الشروط الضرورية لحمايته، وتأمين حركته، والانفتاح عليه بما يخدم قضية الجميع، وهي توفير الحماية والعون للضحايا. خصوصا إذا كان القائمون بهذا العمل يتبعون سياسة تنأى بهم عن التدخل في أي من الأمور المختصم عليها بين المتنازعين. (ونعني بذلك سياسة الحياد التي تتبعها اللجنة الدولية للصليب الأحمر).

العراق، والحاجة لفضاء إنساني غير مسيّس

«لسنا حلفاء قوات التحالف أو الأمم المتحدة، ولا تابعين لأي منها (...) فنحن لسنا ضدكم ولا معكم (...) إننا نحاول القيام بأنشطتنا الإنسانية بصورة مستقلة وغير متحيزة، أقول نحاول، لأن العالم المسيّس الذي يحيطنا قد يحرف طريقة النظر إلينا». وردت هذه العبارات في مقال قصير بعنوان: «نحتاج إلى فضاء إنساني غير مسيّس» نشره مندوب اللجنة الدولية للصليب الأحمر في «تونس» بمجلة الإنساني «المغاربية»، وذلك في أعقاب الهجوم على مقر الصليب الأحمر في بغداد، فهل لا تعدو أصداء هذه الكلمات أن تكون صرخة في واد؟

إن عملية خلق فضاء غير مسيّس، تمارس فيه أنشطة الحماية والمساعدة الإنسانية دورها، واحدة من أشق المهام التي تواجه العمل الإنساني، إذ إن شرطا أساسيا لإيجاد هذا الفضاء غير المسيس يتمثل في ضرورة توافر الإرادة السياسية لدى أطراف النزاع لإتاحة الفرصة لإيجاد هذا الفضاء، وهو ما يعني بالضرورة توافر إرادة سياسية لاحترام القانون الدولي الإنساني، والوفاء بالتزاماته من جانب الجميع. وليس شرطا للوفاء بهذه الالتزامات أن يكون أطراف النزاع جميعهم من الموقعين على مواثيق هذا القانون، أو من قوى ذات تعريف وتحديد واضح (كالدول أو حركات المقاومة المعترف بها أو ما شابه ذلك)، فهذا القانون يتضمن بنودا تكفل الحماية للجميع ومن واجب الجميع بالتالي الإقرار به وإفساح المجال لتطبيقه.

ولا تعني مطالبة الإنسانيين بفضاء غير مسيّس أنهم حالمون أو واهمون، أو أنهم يسعون إلى إيجاد مجال خال من روح العدوان بين المتخاصمين، فهم واعون بعبث هذه التمنيات في ظل حالة الحرب التي يسعى كل طرف فيها لقتل الطرف الآخر. لكنهم ينطلقون في مطالبتهم هذه من ضرورة أن يعي كل طرف من الأطراف بأن القانون الواجب احترامه يضمن توفير الحماية له ولخصمه، وأن الضحية التي تسقط على هذا الجانب أو ذاك تصبح عزلاء محايدة لا أمل لها إلا في نجدة الضمير الإنساني الذي يتقدم ليحميها في ضعفها وهو أعزل، شأنه شأنها، ومجرد من أي سلاح أو نوايا عدوانية.

فالمقاتل الجريح، مهما كان الطرف الذي ينتمي إليه بحاجة إلى الحماية والمساعدة، والعائلة التي فقدت بيتها وشردت بحاجة إلى مأوى آمن، والأسير أو المحتجز لدى أي جانب بحاجة لمن يضمن له الحماية القانونية والمعاملة الإنسانية، والرهينة التي تختطف بحاجة لمن يفرج كربتها ولمن ينبه القائمين بهذه الأعمال إلى مدى مخالفتها للقانون والشرائع الإنسانية، والناس جميعا في كل بقاع الأرض بحاجة في هذه الظروف التعسة لمن يقول لهم أننا جميعا بحاجة لتطبيق القانون، فالحرب مهما كانت ذرائعها وطبيعة الأطراف التي تخوضها ليست فوق القانون، وتطبيق القانون يتطلب من جميع الأطراف إفساح المجال لممثلي العمل الإنساني للوصول إلى الضحايا وتقديم العون اللازم لهم. وهو ما يعنيه الإنسانيون بالحديث عن فضاء غير مسيس.

عامان عصيبان

لقد عايش العاملون بالمجال الإنساني بالعراق خلال العامين الماضيين أوضاعا عصيبة نتجت عن محاولات تهميش دورهم ووضع العراقيل في طريقه. وهي أوضاع، كما سبق أن ذكرنا، شابها في جانب منها ممارسة العنف والقتل ضد رموز هذا العمل الأعزل بهدف النيل من فعاليته واستقلاله.

وغير خافٍ على أحد أن سياسة الاستقطاب، والحرب على الإرهاب، التي تعيش البشرية في ظلها بالوقت الراهن كانت أحد الأسباب الكبرى في تفاقم خطورة بيئة النزاعات الجديدة، التي صبغها عدم احترام القانون وممارسة الانتهاكات على نطاق واسع.

والعاملون بالمجال الإنساني وهم يضعون نصب أعينهم هدف الحفاظ على استقلالية الحيز الذي يعملون به، يدركون، وبالدرجة الأولى أن الهدف الأسمى لعملهم هو التدخل غير المنحاز للتخفيف من آلام الضحايا في النزاعات المسلحة وبسط سلطة القانون على هذه النزاعات.

كما يدركون أنهم، وهم يحاولون حماية أنفسهم من غدر الاعتداءات، لا يعتبرون في الوقت نفسه أن أمنهم يعد أمرا مميزا عن أمن السكان المحليين، وأن سعيهم في ضمان الحماية لأنفسهم يهدف، وبالدرجة الأولى، إلى مواصلة عملهم الميداني بالقرب ممن يحاولون مد يد العون لهم.

ولعلنا جميعا نأمل، بعد مرور هاتين السنتين العصيبتين بالعراق، أن تتدارك كل القوى المتنازعة، والنخب الفاعلة في هذا البلد، أن الأوضاع الراهنة التي تحرم ضحايا هذا النزاع من حقهم في الحماية والعون الواجب لابد أن يتم التعامل معها بالحزم اللازم لمراجعة نتائجها، وذلك بانفتاح كافة الأطراف على العمل الإنساني الذي يستهدف مصلحة الإنسان العراقي، وتوقه إلى أن يستظل بمناخ جديد، تتوافر فيه الشروط اللازمة لإيجاد ظروف إنسانية يحترم فيها القانون الإنساني من جانب الجميع ولصالح الجميع، في بلد كان مهدا للحضارة الإنسانية، كما كان البوتقة التي انصهرت فيها فكرة القانون وانطلقت منها إلى العالم بأسره ■

تبقى آثار الحروب واضحة على أولئك المتضررين منها لا سيما المدنيين الأبرياء المصابين بويلاتها حتى بعد انقضائها، إذ إن أعداد ضحايا الألغام أو القذائف غير المنفجرة جراء مخلفات الصراعات المسلحة أو العنف تبدو على كثير من الأجساد التي فقدت أطرافًا مهمة وشكلت إعاقة لهؤلاء المحتاجين لبدائل شبيهة بالطبيعية وإن كانت اصطناعية، وفي اليمن وجراء النزاعات السابقة أو الأحداث الناجمة عن الأسلحة وحوادث الطرقات يتواجد الصليب الأحمر الدولي للعمل على دعم الحكومة اليمنية ومساعدتها ومن خلال عمله الإنساني في مركزين طبيين للأطراف الاصطناعية بصنعاء والمُكلا محافظة حضرموت، والأخير هو المركز الذي زرناه لمعرفة الدعم والمساعدة منذ إنشائه قبل عامين، أي في عام 2003م، من قبل الحكومة ليخدم ثلاث محافظات في البلاد هي: "المهرة" و"شبوة" و"حضرموت"، التي يقع بها المركز ويخدم أو يستهدف حوالي مليون وخمسمائة وخمسة وثمانين ألف نسمة هم سكان تلك المحافظات الثلاث وفقًا للتعداد السكاني الأخير الذي أعلن عنه قبل أسابيع.

تعلمت مهنة إنسانية

يبدو المركز حديثًا ونظيفًا من الداخل. قابلني فيه العاملون من الشباب الذين تدربوا وتأهلوا بحسب مقاييس مهارات التدريب المعروفة عالميًا إذ يؤكد رشيد مسجدي ـ فني أطراف اصطناعية ومساند ـ وهو من بين اثني عشر شابا من أبناء حضرموت تلقوا تعليمهم النظري والعملي لصناعة الأطراف على ذلك بقوله: "تدربت في اليمن على تصنيع الأطراف والمساند التي يحتاجها المعاقون من جراء الحروب أو نتيجة تعرضهم لبتر أطراف لهم من المرض أو حوادث السير وحصلت أيضًا على دورة تدريبية في ألمانيا لمدة شهرين، وكل هذه العلوم والتدريب والتأهيل حصلت عليها كما حصل عليها زملائي من اللجنة الدولية للصليب الأحمر في اليمن وأشعر بارتياح بأنني تعلمت هذه المهنة الإنسانية ووصلت إلى هذا المستوى لأنني أقدم خدمة لا توصف لأبناء هذه المحافظات وللوطن عمومًا".

معاقون بالآلاف

يفد إلى مركز المُكلا آلاف المستحقين لتلقي العلاج، من بينهم المراجعون أو طالبو الاستشارة، منهم بالطبع المحتاجون للعلاج وتركيب أطراف اصطناعية أو مساند لهم وإجراء تمارين السير ليستطيعوا الحركة كأقرانهم من الأسوياء وهؤلاء الزوار للمركز من مناطق مختلفة تبعد مساكنهم مسافة

في هذا الصرح الطبي المجاني، وبجولة خاطفة، تجلى لي انطباع أن اللجنة الدولية للصليب الأحمر تعمل لخدمة من يحتاج إليها مهما كان لونه أو جنسه أو دينه أو لغته أو معتقداته الفكرية والسياسية.

صناعة الأطراف والأمل والابتسامة في المُكلا

© اللجنة الدولية للصليب الأحمر

ثلاثمائة كيلومتر خصوصًا القادمين من بطون ووديان حضرموت وأطراف الصحراء وليس شرطا أن يكونوا من ضحايا الألغام، فالخدمة والعلاج يقدمان لكل من بترت أطرافه جراء حوادث الطرقات أو نتيجة استفحال مضاعفات أمراض سرطانية أو الغنغرينا أو السكري. كما يفد أيضًا المحتاجون للعلاج الذين يأتون من مأرب المحافظة الثانية المجاورة لحضرموت وكذلك من شبوة، ويلاحظ أيضا بالمركز وجود أمهات وآباء يحملون صغارهم للاستفادة من العلاج المقدم، وهو علاج التشوهات الخلقية، كالميول أو حالات الاعوجاج في الأقدام الصغيرة الرقيقة، التي يتم تقويمها بواسطة ما يشبه الحذاء من مادة صنعت خصيصًا. وهي مادة تفيد في تقويم التشوهات كثيرًا وتعيد الوضع الطبيعي لأقدام الأطفال المصابين بهذه الحالات. وقد شاهدت أثناء زيارتي للمركز أبوين جاءا ليقدما الثناء للسيد محرز الأمين مدير مشروع الأطراف الاصطناعية باللجنة الدولية للصليب الأحمر في اليمن والابتسامة تعلو محياهما، كما أطلعني المهندس الأمين على إحصائية ومعلومات أولية تؤكد أن بالمنطقة التي يخدمها مركز المُكلا يتواجد (ثلاثة آلاف مُعَاق). أما عما قدمته اللجنة الدولية للصليب الأحمر من دعم لمركز الأطراف الاصطناعية بالمكلا فيقول: "عملنا يأتي ضمن التعاون مع الحكومة اليمنية ممثلة بوزارة الصحة التي أنشأت هذا المركز ومن حينه قدمنا كلجنة دولية كافة المعدات والمواد الخاصة بصناعة وإنتاج الأطراف الاصطناعية والمساند".

علوي عبد الله بن سميط*

أرقام قياسية

ويتمثل برنامج اللجنة الدولية للصليب الأحمر الخاص بمشروع الأطراف الاصطناعية المقدم لمركز المكلا في تقديم التدريب والتأهيل وتقديم المواد وآلات التصنيع والاحتياجات والإشراف الفني والخبراء العلميين، وإذا حسبنا هذا البرنامج بلغة الأرقام المالية فستكون النتيجة أرقاما قياسية، وكل هذا تقدمه اللجنة الدولية مجانًا كما أن أي طرف يصنع للحالة المريضة أو المعاقة يقدم بدون مقابل أيضًا، بل إن اللجنة أدخلت تقنية حديثة لهذه الصناعة الإنسانية. إذ إن الأطراف المصنوعة هي من مادة ا(البوليبروبلن).

(*) محرر أول بصحيفة الأيام العدنية محافظة حضرموت.

لم أعد معاقا

يقول الشاب سالم سعد (ثمانية عشر عامًا) القادم من شبوة على بعد أكثر من عشرين كيلومترا غرب المكلا بأنه أصيب بطلقات رصاص من بندقية آلية في رجله اليمنى ومن حينها بدأت معاناته وتنقل في المستشفيات للعلاج بدون جدوى ولم يكن العلاج إلا بتر رجله من الفخذ بمستشفى بمحافظة عدن وأضحى من جديد يحتاج إلى علاج ووصل إلى المُكلا منذ أسبوعين وحصل عليه ويتمرن حاليًا على المشي بعد تركيب الطرف الاصطناعي له، حديثه مفعم بالحيوية والتفاؤل قائلاً: انظر ألست بخير إنني لم أعد مُعاقًا.

حب العمل والسلوك الراقي والتعامل الحسن

وفي المركز مكتبة علمية مقدمة من اللجنة الدولية للصليب الأحمر لتوسيع المعارف والمدارك التقنية للمهنيين وعونًا لهم للاطلاع على ما يستجد عالميًا في مجال التعامل مع الإعاقات وصناعة الأطراف وللسيد محرز الأمين جهود كبيرة بترجمة معظم الكتب إلى اللغة العربية، قبل مغادرتي حدثني السيد سعيد باحشوان المدير الحكومي لمركز المُكلا للأطراف الاصطناعية والعلاج الطبيعي قائلاً: (إنني ممتن لما قام به خبراء اللجنة الدولية للصليب الأحمر من تدريب وتقديم المواد والإشراف العلمي مما أكسب العاملين علومًا نظرية وتطبيقية وتدريبًا لازمًا، إضافة إلى أن خبراء اللجنة أضافوا سمات سلوكية لدى العاملين إذ غرسوا فيهم حب العمل والارتقاء بالسلوك والتعامل الحسن. وهذا جميل ومن التدريب والتأهيل وحتى تسليم الأطراف أو المساند يقدم لنا مجانًا).

مركز لصناعة الابتسامة

في هذا الصرح الطبي شبه المجاني وبجولة خاطفة تجلى لي انطباع أن اللجنة الدولية للصليب الأحمر لا تضع معايير مشروطة لكي تعمل، سواء معيار أو خدمة من يحتاج إليها مهما كان لونه أو جنسه أو دينه أو لغته أو معتقداته الفكرية والسياسية. وجسدت هذه المعاني في مركز المُكلا للأطراف الاصطناعية لتقديم وتوفير العلاج للمعاقين ومن بينهم ضحايا الألغام بالطبع، والمعاق القادم إلى هذا المركز يخرج منه قائلا: أستطيع السير دون مساعدة أحد ولتذهب معاناتي وآلامي الجسدية والنفسية منذ اليوم. حقًا إنه مركز أيضًا لصناعة الابتسامة أهدي لليمنيين من اللجنة الدولية للصليب الأحمر ■

اللجنة الدولية وضحايا الحرب**

© اللجنة الدولية للصليب الأحمر

في عام 1962 بعد مقتل الإمام أحمد ـ حاكم اليمن الشمالي ـ قامت مجموعة من الضباط والمدنيين بالإطاحة بحكم خليفته الإمام البدر، وإعلان الجمهورية العربية اليمنية. وقد فرَّ الإمام البدر بمساعدة بعض القبائل الموالية، وبدأ بدعم من المملكة العربية السعودية بمحاربة الجمهوريين المدعومين من مصر. لذا نشب قتال عنيف في المرتفعات اليمنية الوعرة ـ في بلد كان حتى ذلك الوقت شبه منغلق عن العالم الخارجي.

وعقب اندلاع القتال، في أواخر عام 1962، أقامت اللجنة الدولية للصليب الأحمر اتصالاتها مع ممثل الإمام البدر في الأمم المتحدة من ناحية، ومع ممثل الجمهورية العربية اليمنية في القاهرة من ناحية أخرى من أجل إيجاد وسائل لتقديم المساعدة والوساطة بين الأطراف المتقاتلة من أجل مصلحة الجنود الجرحى والمدنيين بالإضافة إلى أسرى الحرب.

وفي أوائل عام 1963 وصل فريقان من أطباء ومندوبي اللجنة الدولية إلى اليمن من أجل استكشاف الوضع في جبهتي القتال. وتوجه الطبيبان السويسريان روبلي وبيدرمان عبر المملكة العربية السعودية إلى المنطقة الواقعة تحت سيطرة القوات الموالية للإمام البدر، في حين توجه الفريق الثاني من أخصائي اللجنة الدولية إلى صنعاء لتقييم الوضع الصحي في جبهة الجمهوريين.

وخلال هذه الزيارات، ألزم الملكيون والجمهوريون أنفسهم باحترام اتفاقيات جنيف ومبادئ حركة الصليب الأحمر والهلال الأحمر.

على الجانب الجمهوري كانت هناك بعض المستشفيات وبعض الخدمات الصحية الأخرى، إلا أن مندوبي اللجنة الدولية لاحظوا أن هناك نقصًا شديدًا في الأدوية والأدوات. وفي فبراير/ شباط 1963، وجهت اللجنة الدولية نداءً إلى كل جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر الوطنية لتوفير الأدوية للخدمات الصحية في الجمهورية العربية اليمنية. فقامت الجمعيات الوطنية بإرسال أدوية بقيمة 125,000 فرنك سويسري عن طريق عدن، حيث تم توزيعها في الشهور التالية بواسطة مندوب اللجنة الدولية على المستشفيات والعيادات.

لقد كان الوضع الصحي في مناطق القتال في المرتفعات اليمنية مأساويًا، إذ لم يتمكن المقاتلون الجرحى من الحصول على أي رعاية طبية، وكان معظمهم يموتون في كهوفهم ومخابئهم.

المستشفى الميداني

ومن هنا جاءت فكرة إنشاء مستشفى ميداني في منطقة قرب خطوط القتال مجهز

رونالد أوفترينجر*

كان العمل الطبي يمثل تحديًا تقوم به اللجنة الدولية، بالإضافة لمشكلات الإمداد، حيث يصعب الوصول إلى معظم السلاسل الجبلية.

بكافة المستلزمات الجراحية. وتم اختيار سهل مرتفع يدعى العُقد، في شمال محافظة الجوف القريبة من واحة نجران السعودية، في المنطقة المحايدة والمراقَبة من قبل الأمم المتحدة، وذلك لإنشاء مستشفى يحتوي على خمسين سريرًا، وقسم أشعة ومختبرات وعيادة عامة. أما القسم الأساسي في هذا المستشفى فكان الوحدة الجراحية سابقة التجهيز.

بدأ العمل في المستشفى في ديسمبر/ كانون أول 1963 لمعالجة المقاتلين الجرحى إلى جانب سكان المناطق المجاورة من المدنيين. وفيما بعد قامت الفرق الطبية من عُقد بمهمات إلى مناطق القتال للتمكن من معالجة جرحى الحرب بسرعة. ومع حلول نوفمبر/ تشرين ثاني 1965 قام أطباء وممرضو مستشفى عقد بعلاج 1700 مريض، وقاموا بإجراء 2088 عملية جراحية، وتشخيص 60500 حالة في العيادة العامة. كما تمت إقامة مستشفى ميداني آخر في كهف في العقبة، وهي قرية صغيرة في شمال محافظة صعدة واقعة تحت سيطرة القوات الملكية.

وفي أغسطس/ آب 1965 قام الطرفان بتنفيذ اتفاق وقف إطلاق النار في جدة، إلا أنه في أوائل عام 1966 اندلع القتال من جديد، مع زيادة استخدام القصف الجوي من قبل القوات المصرية الداعمة للجمهوريين.

في يناير/ كانون ثاني 1967 وصل أطباء اللجنة الدولية إلى قرب كتف في محافظة الجوف بعد يومين من مقتل حوالي 120 شخصًا نتيجة للقصف، ووجدوا أدلة حول استخدام الغازات السامة. وبعد عدة حوادث مماثلة، قامت اللجنة الدولية بمناشدة كل أطراف النزاع، مذكرة إياهم بأنه "يمنع منعًا

© اللجنة الدولية للصليب الأحمر

باتًا ضمن القانون الدولي والعرفي استخدام هذه الأسلحة".

ومع اقتراب القتال من العاصمة صنعاء في ديسمبر/ كانون أول 1967، أنشأت اللجنة الدولية مستشفى ميدانيًا آخر في قرية جحانة شمال العاصمة، وهو المستشفى الذي بقي يعمل حتى سبتمبر/ أيلول 1969.

لقد كان العمل الطبي في اليمن يمثل نوعًا من التحدي للجنة الدولية، حيث لم يكن هناك أي مكون من مكونات حركة الصليب الأحمر والهلال الأحمر، بالإضافة إلى مشاكل الإمداد حيث يصعب الوصول إلى معظم السلاسل الجبلية.

إلا أن المحلل في اللجنة الدولية، فرانسوا بيريت اختتم قوله: "استفاد مندوبو اللجنة الدولية من التفهم الكبير من قبل الجمهوريين وقوات الإمام للقواعد الإنسانية لقانون جنيف والمبادئ العالمية المذكورة في الشريعة والعرف الإسلامي" ■

(*) مندوب الإعلام والنشر في بعثة اللجنة الدولية بصنعاء.

(**) المصدر: فرانسوا بيريت "مهمة اللجنة الدولية في اليمن (1962– 1970)، جنيف، 2001.

عقب صدور قرار مجلس الأمن المتعلق بإحالة المشتبه بارتكابهم جرائم إنسانية في دارفور، أجرت "الإنساني" هذا الحوار مع الدكتور محمد عزيز شكري أستاذ القانون الدولي وعميد كلية العلاقات الدولية والدبلوماسية في جامعة القلمون السورية، كما أنه أحد الذين أسهموا في وضع النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية.

د. محمد عزيز شكري

في حوار مع «الإنساني»:

قرار مجلس الأمن 1593 يشكل سابقة مثيرة للجدل

■ **الإنساني:**

يعد قرار مجلس الأمن رقم 1593 الخاص بإحالة المتهمين في الجرائم المرتكبة ضد القانون الدولي الإنساني في دارفور للمحكمة الجنائية الدولية سابقة فيما يخص التعامل مع هذه القضايا في المنطقة العربية. ما هو تقييمكم لهذا القرار وملابسات صدوره؟

■ **د. شكري:**

في رأيي أن القرار 1593 (2005) الصادر عن مجلس الأمن في جلسته رقم 5158 المنعقدة في 31 مارس 2005 يشكل سابقة مثيرة للجدل من الناحية القانونية لعدد من الأسباب:

فالمجلس يتصرف فيه بموجب الفصل السابع من الميثاق وهذا الفصل يتحدث عن حالات العدوان والتهديد باستخدام القوة من جانب دولة على دولة أخرى، وهو ما قد لا ينطبق تمامًا على إقليم دارفور الواقع بالكامل في دولة السودان، وبالتالي فمجلس الأمن على عادته في الآونة الأخيرة يسيّس المعنى القانوني للعدوان في حالة دارفور ولا يفعل الشيء ذاته في مناطق أخرى من العالم حيث العدوان هو فعلاً ما عرّفه قرار الجمعية العامة رقم 3314 لعام 1974 الذي أصبح في رأي الفقه والاجتهاد من المبادئ العامة الآمرة للقانون الدولي jus cogens (انظر الفقرة التسبيبية 59 من حكم محكمة العدل الدولية في دعوى بنيكاراغوا ضد الولايات المتحدة لعام 1986).

والمجلس في قراره هذا، وفي العجالة التي وسمت تصرفه يستند إلى المادة 16 من نظام روما الأساسي وهي المتعلقة "بإرجاء التحقيق أو المقاضاة" في دعوى مرفوعة أمام المحكمة في حين كان حريًا بالمجلس الاستناد إلى المادة 13 ف (ب) من النظام الأساسي.

ولعل المخالفة الأهم في القرار تكمن في أن السودان ليس طرفًا في نظام روما الأساسي الذي يشكل ميثاق المحكمة الجنائية الدولية فهل يسمح لمجلس الأمن أن يتخطى قاعدة جوهرية من قواعد قانون المعاهدات المعروفة منذ 26/5/1969 بأن المعاهدة لا تلزم إلا أطرافها؟ وهل كان المجلس سيجرؤ أو يستطيع فعل ذات الشيء لو أن المتهمين في دارفور كانوا من جنسية الولايات المتحدة الأمريكية؟ لا أعتقد.

ومن جهة أخرى وبفرض أن قرار المجلس الصادر بموجب الفصل السابع أصبح له قوة تفوق قوة المعاهدات وشروط الالتزام بها هل يعنى ذلك عدم إتاحة الفرصة أمام القضاء الوطني السوداني ليأخذ حقه في مقاضاة المتهمين، لأن المحكمة الجنائية الدولية تقوم على مبدأ التكاملية complementarity وليس حلول القضاء الجنائي الدولي محل القضاء الوطني، فالأول يكمل ما فات الثاني إما بسبب انهيار النظام القضائي الوطني أو بسبب عدم رغبة هذا الأخير في مقاضاة المتهمين أو عدم قدرته على ذلك. وهو أمر لا بد أن يمنح السودان مهلة لإثبات عكسه فيه.

لا يفهم من كلامي أبدًا أني، مباشرة أو بصورة غير مباشرة، لا أريد أيًا ممن ارتكب جريمة من الجرائم الدولية البشعة التي حددها النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية في مادته الخامسة ومنها جريمة إبادة الجنس والجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب ومستقبلاً جريمة العدوان التي هي أم الجرائم السابقة كلها أن يفلت من العقاب مطلقًا. لكني لا أريد للمحكمة أن تبدأ سجلها بحالة مشكوك في صلاحيتها النظر فيها حاليًا على الأقل.

■ **الإنساني:**

يتحدث منتقدو القرار في العالم العربي عن ازدواجية المعايير التي يتم بمقتضاها إعفاء رعايا بعض الدول من الخضوع للمحكمة الجنائية الدولية بينما يتم استخدام هذه المحكمة ضد دول أخرى. ما هو رأي القانون في هذا؟

■ **د. شكري:**

نعم أنا مع منتقدي القرار في العالم كله وفي العالم العربي خصوصًا، فلهم أن يتساءلوا حسنًا إذا أردتم محاكمة مرتكبي الجرائم الواردة أعلاه في دارفور فلمَ لا تحاكموا مرتكبيها في فلسطين وفي الشيشان وفي العراق وفي أفغانستان وكلها ترتكب باستمرار ومنهجية وبعد دخول نظام روما حيز النفاذ؟. أم أن لإسرائيل وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية حصانة سياسية لم يتحدها نظام روما. هذا التساؤل يطرح وأنا أقول نعم هناك ازدواج في المعاملة وهو أمر يأباه القانون الدولي. لا ننسى أن مجلس الأمن الدولي أقر مرتين إعفاء قوات السلام الدولية من اختصاص المحكمة امتثالاً لرغبة أمريكية وكان القصد حماية القوات الأمريكية التي تدخل في عداد قوات حفظ السلام. لكن حمدًا لله أن الأعضاء الآخرين وعوا خطأ هذا التوجه مما اضطر واشنطن لسحب مشروع قرار يجدّد الإعفاء لسنة ثالثة. فمتى يعي أعضاء المجلس، وبخاصة الدول ذات العضوية الدائمة وجوب عدم الاستمرار في ازدواجية المعايير. فهي تنسف فكرة القضاء الجزائي الدولي الذي ينطلق من أن لا حصانة لأحد فيما ارتكبه من جرائم بغض النظر عن جنسيته أو جنسه أو عرقه أو دينه فالمجرم مجرم والبريء بريء.

■ **الإنساني:**

صدر قرار مجلس الأمن بموجب الفصل السابع من الميثاق وهو ما يعني أنه يتمتع بقوة النفاذ. والسؤال هو: "هل يمتلك مجلس الأمن صلاحية تحديد ولاية اختصاص المحكمة الجنائية الدولية؟ وما أثر ذلك على وضع نظام المحكمة الجنائية الدولية مستقبلا؟"

■ **د. شكري:**

استقر الفقه والاجتهاد منذ الرأي الاستشاري لمحكمة العدل الدولية في موضوع ناميبيا عام 1970 على أن قرارات Decisions المجلس ملزمة سواء صدرت بموجب الفصل 6 أو 7 أو 8 أو 12 شريطة أن تكون منسجمة مع أهداف ومبادئ الأمم المتحدة، لذلك فإن أي قرار شرعي يصدر عن المجلس، أقصد مجلس الأمن ملزم إذا لم يتعارض مع مبادئ الميثاق. خوفي أن المجلس العتيد في عصر السلم الأمريكي PaxAmericana أصدر ويصدر قرارات تتعارض مع مبادئ الأمم المتحدة كالقرار الصادر عن لبنان برقم 1559، ومع هذا فهناك من يعطيه قوة الكتب المقدسة مجتمعة أما قرار المجلس 1405 بتشكيل لجنة لتقصي الحقائق عن جرائم ضد الإنسانية ارتكبتها إسرائيل في جنين العام قبل الماضي فلم تنفذه إسرائيل ولم أسمع أن دولة في المجلس طالبت بإلزامها بتنفيذه. هنا أيضًا لكي يكون للمجلس مهابة أرجو أن يكون منسجمًا مع نفسه وألا يلجأ إلى ازدواجية المعايير.

■ **الإنساني:**

يرى مؤيدو القرار أن معارضيه يخلطون بين القانون والسياسة. فهل هناك أيضا خلط مماثل لدى مؤيدي القرار؟

■ **د. شكري:**

نعم هناك تسييس للقانون الدولي في استصدار القرار 1593. ومع أن السياسة ليست بعيدة عن القانون الدولي إلا أن صيرورة السياسة أضحت المسيّرة الوحيدة يقلقني كرجل قانون دولي يتمنى أن يبقى هذا القانون حاكمًا وحيدًا لسلوك الدول وغيرها من الأشخاص الدولية في علاقاتها المتبادلة.

■ **الإنساني:**

على ضوء الخبرة السابقة في إنشاء محاكم جنائية دولية خاصة (رواندا ـ يوغوسلافيا)، والمشكلات التي رافقت عمل هذه المحاكم، هل يمكن إعطاء تقييم عام لحالة العدالة الجنائية الدولية ومستقبلها في هذه الظروف؟

■ **د. شكري:**

العدالة الجنائية، اليوم، أفضل منها عند ولادة الأمم المتحدة فقد تجاوزنا محاكم المنتصرين في نورمبورغ وطوكيو وتجاوزنا المحاكم السياسية في يوغوسلافيا السابقة ووصلنا إلى المحكمة الجنائية الدولية التي أعدّ إقامتها أهم إنجاز منذ إنشاء الأمم المتحدة شريطة عدم إساءة استخدام اللجوء إليها وعدم التهرب من نظامها الأساسي أو الالتفاف عليه ■

الصورة الفوتوغرافية: رويترز

من طب العسكر إلى عسكرة الطب

نظرة تاريخية على العلاقة بين الطب والحرب

د.إبراهيم البجلاتي*

بالرغم من آلاف الصفحات التي تحوي رسائل ومذكرات الجنود من مصابي الحروب أثناء تلقيهم العلاج، وآلاف الصفحات التي سطرتها أصابع "أطباء في الحرب" و"جراحون على خطوط النار"، وآلاف الصفحات التي دونها ملائكة الرحمة بين أسرّة المصابين، وآلاف الصفحات التي تحتفظ بها أرشيفات الجيوش، والجهود الجبارة التي بذلها الأطباء والجراحون من أجل الحفاظ على حياة الجنود، إلا أن العلاقة بين الطب والحرب لم تحظ باهتمام كافٍ من قبل المؤرخين. •••

© اللجنة الدولية للصليب الأحمر

انطلاقا من حياديتها في كافة تفاصيل عملها، ومن حرصها على استمرار وصولها للضحايا ومساعدتهم في أي نزاع مسلح، تؤكد اللجنة الدولية على امتناعها عن تقديم أية شهادات لأي من أعضائها سواء أمام المحاكم الدولية أو أمام أية جهة أخرى.

موقف اللجنة الدولية من
المحكمة الجنائية الدولية

بتاريخ 31 مارس/ آذار 2005، صدر قرار مجلس الأمن رقم 1593 القاضي بإحالة المشتبه في ارتكابهم فظائع إنسانية في دارفور إلى المحكمة الجنائية الدولية، وقد أحدث هذا القرار ردود فعل عميقة، في كافة المحافل السياسية المعنية بالشأن السوداني سواء في العالم العربي أو على الصعيد العالمي. كما كان موضوعا لمساجلات شتى حفلت بها الصحف ووسائل الإعلام العربية والدولية.

وقد صدر هذا القرار، الموطأ له بقرار اللجنة الدولية التي شكلتها الأمم المتحدة للتحقيق في جرائم دارفور، بموافقة أحد عشر عضوا، وامتناع أربعة أعضاء عن التصويت (هم الجزائر والبرازيل والصين والولايات المتحدة الأمريكية) وذلك دون رفض للقرار من أي دولة عضو، وهو القرار الذي نص على تقديم 51 شخصا للمحاكمة.

على صعيد موقف اللجنة الدولية للصليب الأحمر فيما يخص المحكمة الجنائية الدولية بشكل عام، ترى اللجنة أن من الضروري احتراما وتدعيما للقانون الدولي الإنساني أن تتم معاقبة مرتكبي الانتهاكات في أي موضع من مواضع ارتكابها بالنزاعات الدائرة بالعالم، لكنها، وانطلاقا من حياديتها في كافة تفاصيل عملها، ومن حرصها على استمرار وصولها للضحايا ومساعدتهم في أي نزاع مسلح، تؤكد على امتناعها عن تقديم أية شهادات لأي من أعضائها سواء أمام المحاكم الدولية أو أمام أية جهة أخرى، وغني عن الذكر أن النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية قد أعفى أعضاء اللجنة الدولية من تقديم هذه الشهادة.

لا للانتهاكات ولا لتقديم الشهادة

أما فيما يخص قرار مجلس الأمن بإحالة بعض المشتبه بهم بارتكاب فظائع في دارفور إلى المحكمة الجنائية الدولية، فعلى الرغم من إعلان اللجنة الدولية للصليب الأحمر مرارا لإدانتها ورصدها لما يحدث من انتهاكات في هذه المنطقة، وكذلك على الرغم من إعلانها المتكرر عن تدهور الأوضاع الإنسانية في هذه المنطقة، إلا أنها أكدت وبوضوح أنها لم تقدم أية معلومات أفضت إلى استصدار هذا القرار.

تاريخ من العمل بالسودان

ومن المعروف أن للجنة الدولية للصليب الأحمر تاريخًا طويلاً في العمل بالسودان لصالح ضحايا النزاعات في هذا البلد إذ افتتحت أول مكتب لها في الخرطوم عام 1978 ردًا على النزاع الأثيوبي. وفي العام 1984، أطلقت أنشطة تتعلق بالنزاع الداخلي في السودان بين القوات الحكومية وجيش الحركة الشعبية لتحرير السودان جنوبي البلاد. وقد أبرمت عدة اتفاقات لوقف إطلاق النار كانت تهدف إلى إنهاء عشرين سنة من النزاع الداخلي المسلح ونجحت إلى حد ما في التوصل إلى استقرار الأوضاع. إلا أن العنف الذي اندلع أوائل العام 2003 في منطقة دارفور غربي البلاد في مواجهة بين القوات الحكومية وميليشيا "الجنجويد" من ناحية، وقوات المتمردين من حركة تحرير السودان وحركة العدل والمساواة من ناحية أخرى، تسبب في أزمة إنسانية رهيبة تطلبت من اللجنة الدولية للصليب الأحمر إطلاق واحدة من أوسع حملات التدخل على الصعيد العالمي. إذ شاركت فيها بعثة كان قوامها خلال عام 2004، 1331 موظفًا منهم 155 مندوبًا من الخارج.

ومنذ بداية الأزمة في دارفور، قامت اللجنة الدولية بواجبها الإنساني لتقديم المساعدة والحماية للسكان في هذه المنطقة، فقامت بأنشطة تمثل جانب منها فيما يلي:

- توزيع مستلزمات منزلية على 525 ألف فرد بالإضافة إلى أدوات صيد السمك على 10450 فردًا آخر
- توزيع 8,500 طن من الغذاء على أربعمائة ألف شخص؛
- تقديم الدعم الكامل لأربعة مستشفيات واثنتي عشرة وحدة للرعاية الصحية الأولية بما في ذلك الأدوية وبرامج التحصين وتدريب الفرق الطبية التي تقدم الاستشارات الطبية وتجري العمليات الجراحية؛
- ترميم وإصلاح وتوسيع خمسة مستشفيات وثلاث وحدات للرعاية الصحية الأولية، قدم العلاج فيها منذ ذلك الوقت لعدد من الأفراد بلغ ثلاثمائة وسبعين ألف شخص؛
- إصلاح المنشآت أو تجهيزها لتوفير مليوني لتر من المياه يوميًا لصالح ما يربو على مائتي ألف شخص؛
- تنظيم نسق مخيمات "أبو شوك" و"زمزم" و"حسايسة" التي تؤوي حوالي تسعين ألف شخص.

جمع أكثر من 33800 رسالة من رسائل الصليب الأحمر (وهي رسائل مختصرة لنقل الأخبار بين الأقارب) ■

بدأ التأريخ الحقيقي للطب كعلم وكمهنة على يد الأطباء الألمان في نهايات القرن التاسع عشر، ومثلما كان التاريخ الكلاسيكي هو تاريخ الملوك والممالك كان التاريخ الطويل للطب مجرد تاريخ للجذور الكلاسيكية للطب، وسرديات طويلة لسير الأطباء الكبار الذين غيروا وجه فن المداواة وأثروا مسيرة البشرية بابتكاراتهم الخاصة. ورغم أن عددا لا بأس به من هذه الرموز قد نال شهرته الأولى في زمن الحرب وميادين القتال وسحب هذه الشهرة معه إلى الحياة المدنية بعد انتهاء الحرب إلا أن فض أختام العلاقة بين طب وجراحة الحرب وطب وجراحة السلم لم يكن في حسابات المؤرخين الأوائل. ولم يختلف حال المؤرخين الجدد عن أسلافهم إلا في النصف الثاني من القرن الماضي عندما اقتربوا من التاريخ الاجتماعي ووضعوا العلاقة بين الطب والسياسة والثقافة والاقتصاد على طاولات التشريح. إلا أن العلاقة بين الطب والحرب مازالت مجالا مقفولا يخوضه القليل من المؤرخين بحذر لا يتناسب وكم المعلومات الأرشيفية المنشورة والمحظورة. وربما يعود هذا الحذر إلى خجل مؤرخي الطب، وغالبيتهم من الأطباء، من الربط بين مهنتهم النبيلة وبحور الدماء التي أغرقتنا فيها الحروب، خاصة أن الدور المنوط بالأطباء والجراحين في الحروب، في أغلب الأحوال، ليس إنسانيا خالصا بل يقوم بالأساس على المشاركة في هزيمة الأعداء. وهذا الصنف من المؤرخين يرى أنه لا علاقة بين التقدم الذي حدث في الطب والجراحة وبين الحرب، أو أن هذا التقدم كان سيحدث بقوة الحرب وبدونها، أو ربما يقولون أن الحرب فقط عجلت بهذا التطور لكنه ليس نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لها. ومن موقع ما قريب من هذا الصنف الأول يرى مؤرخون آخرون أن آلة الحرب الجهنمية لعبت دور الخادم الشرير لآلة الطب والجراحة، لكن إلى أي مدى كان هذا الخادم شريرا، وماهي طبيعة الخدمة التي قدمها هذا الخادم لسيده غير المقصود فهذا مالم يقله هذا الفريق. وفي الجانب الأكثر تطرفا يرى فريق آخر أن دماء القتلى في الحروب كانت شلالا ضخ في طواحين الطب الراكدة وفن الجراحة النائم زخما هائلا من التطور أفاد منه البشر جميعا في الحياة المدنية وفي الحروب التالية، لكن الوصف الدقيق للحظة التطور والتحول هذه والدور المحدد الذي لعبته الحرب في هذا التطور فلم يتوصل إليه أنصار هذا الفريق. وفي هذا الإطار يتوفر لدينا قدر لا بأس به من الدراسات الصغيرة التي تنشغل بتأثير حرب ما على فرع ما من فروع الطب والجراحة والصحة العامة، لكن لا أحد امتلك من الجرأة ما يكفي لفحص التأثير السياسي والاقتصادي والاجتماعي لـ"الطب العسكري" قبل أن يقفز غيره إلى الحديث عن "عسكرة الطب المدني". وبالتالي يظل توصيف العلاقة بين الطب والحرب توصيفا عموميا يفتقد الموضوعية ويعوزه الفحص الدقيق وقدر لا بأس به من الشجاعة للخوض في الطبيعة الملتبسة لعلاقة يخشى الاعتراف بها بين آلة الحرب وآلة الطب. وفي حقيقة الأمر أن سنوات السلم في التاريخ البشري المدون لا تزيد على قرنين فقط، بما يجعل بعض الباحثين يتحدث عن الحرب باعتبارها "فعلا بيولوجيا"، فيما يتحدث بعضهم الآخر عن الحرب كظاهرة مرضية دون أن يتحدث عن "الحرب على الحرب"، وفي المقابل يتعامل الأطباء مع الجسم البشري باعتباره ساحة للقتال بل ويستخدمون مفردات الجنود ومصطلحات العسكريين في التعبير عن عملهم النبيل في مواجهة غزو الميكروبات للجسم البشري، وتدمير خطوط الدفاع عن الجسم المعروفة مجازا بجهاز المناعة، ويعلنون في فخر عسكري "الحرب على السرطان" بعد انتصارهم الساحق في "الحرب على الجدري".

لا شيء جيدًا في الحرب على الإطلاق

يرى مغني الروك أنه لا شيء جيدًا في الحرب على الإطلاق فيما يتساءل الباحثون عن شروط الابتكار. ويمتحن بعضهم العلاقة بين الطب والحرب في هذا الإطار. وتتجلى شروط الابتكار في: الدافع، والفرصة، والتنظيم. وهذه الشروط جميعا توفرها الحرب!! فالحرب ينتج عنها الكثير من المئات وربما الآلاف من المصابين في وقت قصير والمئات وربما الآلاف من المرضى في الوقت نفسه وهذه هي الفرصة!! وهذا العدد الهائل من الجرحى والمرضى يشكل تحديا هائلا للعدد القليل من الأطباء والجراحين المشاركين في الحرب مضافا إليه الرغبة في هزيمة الأعداء، وهذا هو الدافع!! وتملك الجيوش من التنظيم ما لا توفره الحياة المدنية. هكذا إذن توفر الحرب الشروط اللازمة للابتكار، لكن الابتكارات الفعلية في زمن الحرب قليلة بالفعل، أما الابتكارات في السنوات التي تعقب الحرب فكثيرة بالفعل، فهل يعني ذلك أن الكم الهائل من الخبرات التي تكتسب في وقت الحرب يتم توظيفها بشكل أفضل في زمن السلم؟ أم أن التوتر المكثف الذي تعانيه المؤسسات العسكرية في زمن الحرب يكشف عن جوانب القصور في المؤسسات المدنية فتبادر بتطوير أدائها النوعي أثناء المعارك وبعد أن يهدأ الغبار؟ بهذا المنطق يختبر أصحاب شروط الابتكار الدورين المباشر وغير المباشر للحرب في تطور العناية بالجروح والإصابات (الجراحة) وتطور العناية بالأمراض (الطب الباطني والصحة العامة).

القصور الأساسي في هذا التصور هو تلك التبسيطية المخلة التي ترى في الحرب حالة من حشد الهمم وتختزل مجال عمل الطب إلى جروح وأمراض. الغريب في الأمر أن أغلب هذه التعميمات المخلة التي تتمحور حول ميلاد الخير من رحم الشر أو ظهور التقدم من فائض الخراب جاءت في مذكرات الأطباء والجراحين العائدين من ميادين القتال، كمسوغ دوغمائي لحرب ما أو كنوع من الاعتذار عن المشاركة في مذبحة غير مبررة.

جيوش قديمة طب أرقى

تعتبر البرديات الطبية المصرية أقدم الكتب الطبية المدونة إذ تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وقد شهدت مصر ما قبل الأسرات حروبا كثيرة ما بين الشمال والجنوب حتى تمكن الملك مينا من توحيد البلاد ودمج التاجين معا وإنشاء أول حكومة مركزية قوية في التاريخ. وكان للدولة المركزية حروبها خارج حدود الإقليم الموحد. وعرف عن الفراعنة أنهم امتلكوا بناء طبيا تراتبيا شديد التماسك والتميز اعتمد مجموعة كبيرة من الممارسين في القرى فوقهم أطباء متخصصون في المدن، يرأسهم طبيب كبير للشمال وطبيب كبير للجنوب وفوق الجميع رئيس أطباء القصر الملكي. وتؤكد البرديات أن الجيش المصري القديم كان أول جيش يؤسس سلاحا للخدمات الطبية ويرسل فرقا من الأطباء بصحبة الجيوش في الحملات العسكرية خارج القطر. ويندهش المحدثون من التطور الهائل في فن المداواة المصري القديم خاصة في العناية بالجروح والإصابات وبتحديد أدق في العناية بإصابات الجمجمة والمخ. وتضم البردية المعروفة ببردية (إدوين سميث) ـ تعود إلى 1600 قبل الميلاد ومن المرجح أنها منسوخة من بردية أخرى أقدم من هذا التاريخ ـ وصفا دقيقا لمعاينة كسور الجمجمة والآثار الناتجة عن هذه الإصابة وخطوات العلاج برفع الجزء المكسور في حالة الكسر الغائر وإزالة الأجزاء الصغيرة في حالة الكسر المتفتت ثم كيفية تطهير الجرح باستخدام خليط من النبيذ الدافئ وزيت الورد (قاتل للميكروبات بالفعل) ثم كيفية وضع الضماد. وقد وصلت براعتهم إلى حد إدراك أن الإصابة في المخ تحدث شللا في الجانب العكسي من الجسم. ويرجح البعض أن مؤلف هذه البردية كان جراحا في الجيش المصري القديم، وأن ما يدونه هو نتاج لخبرة مباشرة في الحرب فمن المعروف أن الجنود في الجيش المصري لم يعرفوا وضع واق للرأس (الخوذة) إلا في زمن متأخر نسبيا وهو ما كان يعرض الجنود لكم أكبر من إصابات الدماغ ويضيف المزيد من الخبرات للجراحين. لكن هذا التفسير ليس سوى استنتاج المحدثين ويحتاج إلى دليل أقوى من ذلك نسبيا. ومن الغرائب أيضا ان هذه البردية تحديدا تقل فيها الوصفات العلاجية السحرية والتعاويذ والرقى عن مثيلاتها من البرديات القديمة، وهو ما يقوي الترجيح السابق الزاعم بأن مؤلفها جراح عسكري لا وقت لديه لتلاوة الرقى وتقديم القرابين وغيرها من الطقوس البطيئة وإنما هناك وقت فقط للتفكير الموضوعي والفعل العلاجي الإيجابي إنقاذا للجندي المصاب. وفق هذا التفسير تكون الحرب قد وفرت كمًا من الإصابات النوعية طورت في الأداء المباشر والمنهجي للجراح أو الطبيب وراكمت المزيد من الخبرة التي تم استغلالها لاحقا في الحياة المدنية. ووفق هذا التفسير يمكننا أن نتعامل بالتصديق مع مقولة إيبوقراط (القرن الخامس قبل الميلاد)، التي يشكك فيها بعض الباحثين: "إذا أردت أن تصبح جراحا..فالتحق بالجيش"، ومع مقولته الثانية: "الحرب هي المدرسة الوحيدة للجراحين"، رغم أنه لم يعرف عنه أنه شارك في أي حرب من الحروب الكثيرة التي جرت في زمنه البعيد. لكن فيما يبدو أنه كان يلخص خبرات السابقين عليه خاصة أن الكلمة اليونانية القديمة الدالة على الجرّاح تعني حرفيا: نازع السهام(extractor of arrows). ورغم ذلك يملك المشككون بعض الحق فالأساطير اليونانية القديمة تؤكد على فشل الجراحين المتكرر في علاج الجروح الخطيرة لأبطالهم العظام وهو ما كان يضطر الآلهة للتدخل إنقاذا لحياة أبنائها من فداحة الجرح وخيبة الجراح. وتشير الجداريات الإغريقية ذاتها إلى ذلك كما تشير إلى عدم وجود الجراحين والأطباء في الحرب إذ تظهر الجنود يعالجون جراح بعضهم البعض. فمن أين أتى إيبوقراط بمقولاته هذه خاصة أن الحرب الوحيدة التي يفترض أنه كان معاصرا لها (الحرب البليوبونيزية) لم يشارك بها ولم يشر إليها أيضا رغم أن الجيوش لم تحسم هذه الحرب بل حسمها الطاعون!! هل استند إيبوقراط في مقولته لجماع الخبرة التي تضمها الإلياذة والأوديسة واللتان تضمان معا عددا من الجروح يفوق المائتين بأدوات حربية مختلفة والأثر التشريحي الفسيولوجي لهذه الإصابات بما يفوق مستوى التشريح والفسيولوجيا لإيبوقراط ذاته. وسواء قالها ●●●

(*) كاتب هذا المقال طبيب وجراح مصري، له العديد من الكتب والدراسات والترجمات المنشورة في مجال تاريخ الطب.

حسب رأي إيبوقراط وجالينوس وابن سينا، اعتُبرت الجراحة حرفة يدوية

مستشفى ميداني في الحرب التركية الصربية

© اللجنة الدولية للصليب الأحمر

الحرب! ما هو الجيد في الحرب؟ لا شيء على الإطلاق.

من أغاني الروك

●●● هو فعلا أو قالها غيره ونسبت إليه يظل للمقولة وجاهتها وصدقيتها ـ في العالم القديم على الأقل ـ وهو ما تؤكده المؤسسة العسكرية الرومانية. فالجيش الروماني هو أطول المعاهد السياسية والعسكرية عمرا في التاريخ قبل وبعد تأسيسه. أسس الجيش الروماني بعد قليل من تأسيس روما نفسها سنة 753 ق.م. واستمر حتى سنة 478 بعد الميلاد حين أجهز القوط على الإمبراطور الروماني الأخير. وخاضت روما حروبا طويلة من أجل إخضاع المدن الإيطالية الأخرى وتعلمت الجيوش كيف تنظم أنفسها تدريجيا، حتى العام 90 قبل الميلاد عندما حول الجنرال الروماني كايوس ماريوس المؤسسة العسكرية الرومانية إلى جيش محترف شديد التنظيم وعالي الكفاءة التدريبية، ولم يبدأ الطب الروماني إلا مع هذه المؤسسة العسكرية. قبل هذا التاريخ كان الطب الروماني يعتمد على إرضاء الآلهة الغاضبة التي تنزل المرض عقابا بالمغضوب عليهم، فيندفعون إلى المعابد يستعطفون الآلهة ويقدمون القرابين وغيرها من الشعائر طلبا للشفاء. لكن الجيش المحترف لم يكن معنيا بإرضاء الآلهة قدر عنايته بالكفاءة القتالية لأفراده. وبناء على رؤية المؤسسة الضخمة دأب الأطباء على التعامل الموضوعي مع المرض بصيغة الصواب والخطأ التجريبية ونقل هذه الخبرات للأجيال التالية. كانت الحرب التي دامت خمسة عشر عاما عقب اغتيال يوليوس قيصر حربا شديدة القسوة بين أقوى جيشين في العالم القديم وفي الوقت نفسه كانت حربا شديدة الأهمية للطب والأطباء. وقد اقتنع الإمبراطور الجديد(أغسطس) برفع مستوى الأطباء، فأسس الفيالق الطبية الملحقة بالجيش، ومنح الأطباء الألقاب والإقطاعيات ومعاشات التقاعد. واستمرت هذه الفيالق الطبية تمد الطب بالابتكارات والمعرفة المنظمة لخمسة قرون متتالية. ولم يكن الأمر متعلقا فقط بعلاج الجروح والإصابات لكنه كان مرتبطا بإنشاء (مدرسة الطب العسكري) التي يلتحق بها الأطباء العاملون في الجيش للتدريب والتأهيل قبل الزج بهم في ميادين القتال. ومع بداية القرن الثالث كان على جميع الأطباء مدنيين وعسكريين الالتحاق بهذه المدرسة الطبية العسكرية. ونتج عن هذا التنظيم كم لا بأس به من المعارف الطبية الجديدة فيما يتعلق بالتشريح والأمراض ووسائل علاجها وتطورت الآلات الجراحية بشكل لا يجعلها تختلف كثيرا عن تلك المستخدمة في الحرب الأهلية الأمريكية في القرن التاسع عشر. وبدأ الرومان مع هذه المؤسسة في تجهيز مستشفيات معقدة وموزعة إلى أقسام، غالبا ما كانت تؤوي جرحى الحروب وقدامى المحاربين وأصحاب العاهات. وظهرت التخصصات الطبية في روما (كانت موجودة من قبل في مصر القديمة) وأصبح هناك أطباء للرمد وأطباء للأمراض الباطنية وأطباء مختصون في علاج حصى المثانة، ومع التوسع العسكري الروماني تم التعرف على المزيد من النباتات الطبية التي أضيفت إلى الفارماكوبيا (علم الصيدلة) القديم. وأظهرت الإدارة الرومانية فهما لوسائل الصحة العامة فعمدت إلى تخصيص مجارير للصرف وخطوطا لنقل المياه النقية إلى المدن. هكذا لعبت المؤسسة الطبية العسكرية الرومانية دورا مؤثرا في مسيرة الطب لا يجوز إنكاره لكن المؤسسة انهارت مع انهيار روما على يد القوط وكان على البشرية أن تنسى ما اكتسبته من خبرة ومعرفة وتنظيم لألف سنة قادمة.

الجراحة الحديثة في ثياب الحرب

في مراوغة معتادة قال الجراح البريطاني جورج ماكلويد العائد من حرب شبه جزيرة القرم: "حقا لقد أضافت هذه الحرب القليل لمعارفنا الطبية"، لكنه لم يتردد في أن يضيف: "كل حرب لابد أن تضيف إلينا بعض الحقائق الجراحية الجديدة، وإذا لم يحدث ذلك فهذه حرب لا تستحق أن يتذكرها المرء. فالحرب الكبرى ـ ببساطة ـ هي ذروة كبرى في المسيرة الناجحة لعلم الجراحة، حيث تختبر المعلومات التي حصلت في وقت السلم ببطء على نطاق واسع وفي ظل التنافس بين الأساليب الجراحية المختلفة". وكأن ماكلويد لا يتذكر حرب القرم فقط بل الحروب السابقة عليها والتي خاضها بعض من أسلافه العظام. فمع نهاية الألف عام التي أعقبت سقوط روما في يد القوط والمعروفة بالعصور الوسطى ظهر البارود وظهر نوع جديد من إصابات الحروب يختلف عن الطعن (الجرح النافذ) وعن القطع (الجرح القطعي) وعن التهتك (الجرح التهتكي) فالبارود يمزج بين النفاذ والتهتك والحرق واعتقد الجراحون وقتها في أنه مسمم أيضا لذا عمدوا إلى علاج هذه الجروح بالكي بالنار أو بالزيت المغلي حتى ظهر امبرواز باريه (1509 –1590) وهو الجراح الفرنسي وأحد المؤسسين الكبار للجراحة الحديثة وابتكر طريقة جديدة لعلاج الجروح الناتجة عن البارود لا تعتمد على الكي. وقد تحول باريه من جراح ـ حلاق إلى جراح عسكري يصف طرقا مبتكرة لعلاج الجرحى في ميادين القتال وطرقا جديدة للبتر وربط الشرايين النازفة، وحاول إحياء فكرة الأطراف الصناعية البديلة كتأهيل لمصابي الحرب. ولم يكن نجم باريه ليظهر بمثل هذه القوة دون حرب، ولم يكن لابن صانع التوابيت الفقير أن يكتسب هذه الخبرة ولا أن يحظى بهذه الشهرة والمجد دون حرب، وكان باريه من الذكاء بما يكفي ليسحب شهرته هذه من ساحات القتال إلى فرساي فأصبح جراحا خاصا لأربعة من ملوك فرنسا، ودخلت الجراحة على يديه عالما جديدا. وبعبارة أخرى فتح البارود ثقبا واسعا في جدار الاحتقار الطويل للجراحة والجراحين (المحرومين من دخول كليات الطب) باعتبار الجراحة حرفة يدوية لا ترقى إلى مرتبة الطب حسب رأي إيبوقراط وجالينوس وابن سينا على التوالي، ومن بعدهم الكثير من الأطباء مجيدي اللاتينية والعلم النظري المقدس، وأصبح الوقت ملائما لاحترم الجراحة والاعتراف بالجراحين وتلك نقلة ليست هينة. ومنذ هذا التاريخ توالت النجاحات بطيئة في عالم الجراحة والجراحين حتى أسقطت الثورة الفرنسية هذا الجدار المثقوب مرة وإلى الأبد. فقد أحدثت الثورة الفرنسية الكثير من التغيير في مهنة الطب والجراحة بل رفعت من شأن الجراحين فوق الأطباء وأصبحت لهم اليد العليا في المستشفيات. لكن قبل أن تثمر هذه الإصلاحات كانت حروب نابليون على كل الجبهات تمنح الجراحين ميادين شاسعة لاكتشاف الذات وإعادة اكتشاف الجراحة على خطوط النار، ومثلما كان نابليون نجما في زمنه ومثالا إلى الآن كان نجم دومينيك لاري الجراح العسكري يلمع فوق الجميع. ولد دومينيك في العام 1766 لعائلة شديدة الفقر في البيرينيه العليا بالقرب من ليون ولم يعطه الفقر سوى فرصة ضعيفة للتعلم على يدي القسيس المحلي. في سن الثالثة عشرة توفي الأب فالتحق الابن بالعم الذي علمه حرفة الجراحة، وفي سن العشرين اجتاز امتحانا شرسا للالتحاق بالأسطول، وأصبح تلميذا لأسطورة طبية أخرى تحمل اسم بيير ـ جوزيف ديسو. التحق لاري بالجيش الفرنسي في العام 1792، وفي العام التالي مباشرة طور لاري الإسعاف الثابت الذي استخدمه الجيش الفرنسي في معركة فونتنوا إلى "الإسعاف السريع" لعلاج الإصابات في مكان حدوثها ولنقل المصابين من خطوط المواجهة إلى الخطوط الخلفية وحقق نجاحا هائلا في تأمين نقل المصابين باستخدام عربات خفيفة تجرها الجمال في صحراء مصر، أو تجرها البغال في جبال الألب، أو الزلاجات في روسيا. هكذا ظهر الإسعاف للمرة الأولى في التاريخ، ومنحه نابليون لقب بارون لكفاءته هذه قائلا: إذا كان للجنود أن يقيموا تمثالا لشخص ما فلن يكون هذا التمثال إلا للبارون لاري. وبالفعل تم عمل تمثالين له واحد في مستشفى فال دو جارس العسكري بباريس والثاني بحديقة الأكاديمية الطبية الفرنسية. لكن المشكلة الثانية التي واجهها لاري كانت مشكلة قديمة جدا تخص الجراحة في وقت الحروب وهي: هل يتحتم بتر الأطراف المصابة أم إجراء علاج تحفظي؟ فكثيرا ما كان البتر يؤدي إلى الموت السريع نتيجة للنزيف (نسبة الوفاة بعد البتر تصل إلى 60٪) بينما يؤدي العلاج التحفظي إلى الموت ببطء عن طريق التيتانوس أو الغرغرين او العدوى العامة. فإذا قيل أننا أجرينا الكثير من عمليات البتر نجد أن لاري ـ الذي يقال أنه أجرى مائتي عملية بتر في 24 ساعة ـ يؤكد على إمكانية الشفاء دون هذه التضحية القاسية. لكن لا يمكن التأكد أبدا من عدد الجرحى الذين تم شفاؤهم دون بتر أو من عدد الجرحى الذين أنقذهم البتر من الموت. في ميادين القتال تمكن لاري من إجراء أول عملية ناجحة لبتر تحت مفصل الفخذ مباشرة لكن مشكلة البتر نفسها لم تحل لا على يديه ولا يد غيره من جراحي الميدان ففي حرب شبه جزيرة القرم (1853–1856) أجرى جراحو الجيش البريطاني 1027 عملية بتر بنسبة وفيات جراحية تصل إلى 28٪، أما في الحرب الأهلية الأمريكية(1861–1865) فقد أجرى جراحو الجيش الاتحادي 30000 عملية بتر وأجرى الجيش الكونفدرالي العدد نفسه من عمليات البتر. وقد ثار في أعقاب الحرب الأمريكية العديد من الاتهامات للجراحين بإجراء عمليات بتر غير ضرورية. وثارت التساؤلات نفسها في أعقاب الحربين العالميتين في القرن العشرين. لكن جراحة العظام والعلاج التحفظي لإصابات الأطراف تطورا بشكل مثير بدءا من الحرب العالمية الأولى. ويصر المؤرخون على فصل التطور في جراحة العظام عن الحرب، بيد أن جراحة العظام نفسها لم تصبح فرعا مستقلا عن الجراحة العامة إلا بعد الحرب العالمية الأولى!! لكن التفوق الأساسي للحرب الأمريكية كان في استخدام التخدير العام أثناء العمليات الجراحية على نطاق واسع وهو ما أتاح للجراحين فرصة التعرف على التشريح ووصف الإصابات وعلاجها بشكل أفضل. فقد تم ابتكار التخدير باستخدام الكلوروفورم والإيثير في العام 1846 على يد طبيب أسنان أمريكي. وتسجل إحصائيات مستشفى ماساشوستس العام أنه خلال الفترة من 1847 إلى 1857 كان يتم إجراء 189 عملية جراحية سنويا تشكل عمليات البتر 60٪ منها بينما عالج الجراحون في الجيش الاتحادي وحده 400 ألف مصاب أجري لـ40 ألف منهم عمليات جراحية منها 30 ألف حالة بتر وباستخدام التخدير العام أثناء إجراء العمليات. هذا الكم الهائل من العمليات الجراحية أثناء الحرب الأمريكية من المؤكد أنه طور في الأداء الجراحي بشكل لا يمكن إنكاره. فإذا قلنا أن الجيش الاتحادي قد بدأ الحرب وبين صفوفه عدد من الجراحين لا يزيد على 68 لم يتح لأي منهم فرصة مشاهدة عملية بتر واحدة ولم يتح لأي منهم فرصة معاينة التركيب الداخلي للبطن والصدر قبل الحرب، ومع نهاية الحرب كان عدد العاملين من الجراحين والأطباء في الجيش الاتحادي وحده أكثر من 11 ألفًا قاموا بعلاج أكثر من 400 ألف إصابة وضعف هذا العدد من المرضى نتيجة للحرب نفسها فمن المرجح أن يكون للحرب تأثير مباشر على الكفاءة المهنية لكل منهم ولمجمل علم وفن الجراحة. أكثر من ذلك أسس الجيش الاتحادي العديد من المستشفيات الضخمة التي وصل عدد الأسرّة في أحدها إلى 8000 سرير تضم عددا من الأجنحة المستقلة وبنظام شديد الحداثة أصبح مثالا فيما بعد في المستشفيات المدنية. وفي الوقت نفسه أنشأت المؤسسة الطبية العسكرية للجيش الاتحادي العديد من المستشفيات ذات الطابع التخصصي (مستشفى لأمراض العيون، مستشفى للحميات، مستشفى للأعصاب، إلخ). وليس من الغريب إذن أن يكون سيلاس وير ميتشل صاحب فكرة إنشاء مستشفى الأعصاب أثناء الحرب الأمريكية هو الأب الروحي لعلم الأعصاب الحديث وصاحب العديد من الاكتشافات الهامة في تركيب وفسيولوجيا الجهاز العصبي اعتمادا على الكم الهائل من الجرحى الذين ناموا على أسرة مستشفاه العسكري. يمكن القول إذن أن الحرب لعبت دورا مباشرا في تطور الجراحة،وعلم التخدير المرتبط بالجراحة،كما أنها لعبت دورا هاما في تطور واستقلال جراحة العظام(بعد الحرب العالمية الأولى) وجراحة التجميل وعلم الأعصاب الحديث. لكن المسكوت عنه دائما ولا يناقش بالقبول أو الرفض هو منظومة الإسعاف التي طورها الجيش الفرنسي قبل وبعد نابليون. فالحرب الفرانكو – بروسية قدمت الفرصة الأولى لاختبار منظومة ●●●

●●● الإسعاف التابعة لمنظمة الصليب الأحمر الحديثة النشأة في ذلك الوقت، بينما شهدت الحرب الأهلية الأمريكية ابتكار الجراح الجنرال ليترمان لمنظومة كاملة وسريعة لإسعاف وإنقاذ الجرحى. قبل هذا التاريخ كان الإسعاف المدني بدائيا، بمعنى وجود وسائل لنقل المرضى إلى المستشفيات لكن لا يوجد نظام أو مؤسسة منظمة لنقل المرضى والمصابين في حوادث الطرق إلى أماكن العلاج. فقدمت الحرب النموذج، بل وشارك العسكريون بطريقة جذرية في صياغة مؤسسة الإسعاف المدني. فالجنرال لونجمور صاحب أول كتاب في تنظيم نقل المرضى والمصابين إلى المستشفيات كان متأثرا بشدة بليترمان الأمريكي، وكان جراحا عسكريا مثله ويعدّ الأخير أحد مؤسسي "جمعية سان جون للإسعاف" في لندن سنة 1877. ولم يكن السير لونجمور الجراح العسكري الوحيد في هذه المؤسسة المدنية. وقد جرى تنظيم هذه المؤسسة المدنية بطريقة عسكرية في فيالق وفرق وألوية. وجرى تقسيم المدن بمصانعها ومبانيها وشوارعها إلى قطاعات عسكرية تتصل بمكاتب الشرطة والمراكز الطبية المدنية التابعة لهذا القطاع تليفونيا (1902)، وتجمعها جميعا إدارة مركزية واحدة. هكذا جرى في بداية عصر الجماهير الغفيرة والطب الكبير الموازي للانتاج الصناعي الكبير الاستفادة بالخبرة العسكرية الشديدة النظامية لضبط الخدمة الطبية المدنية وزيادة فعاليتها وكفاءتها. بنهاية القرن التاسع عشر ظهر الموتور وظهرت سيارات الإسعاف التي استخدمت بكثافة في الحرب العالمية الأولى وهي الحرب نفسها التي شهدت ظهور الإسعاف الجوي للمرة الأولى في التاريخ بطائرات السلاح الجوي الفرنسي وتؤكد سجلات هذا الجيش إمكانية تخفيض عدد الوفيات الناتجة عن إصابات الحروب من 60٪ إلى 10٪ باستخدام الإسعاف الجوي. وفي العام 1920 ،أي بعد عامين من نهاية الحرب،استخدم الإسعاف الجوي لصالح المدنيين للمرة الأولى وأسست أستراليا نظاما مدنيا للإسعاف الجوي سنة 1928. وعلى نفس النهج استخدمت الهليوكوبتر كإسعاف قبل شهور قليلة من نهاية الحرب العالمية الثانية قبل أن تصبح وسيلة إسعاف مثالية في وقت السلم إنقاذا لمرضى القلب وحوادث الطرق السريعة وجزءًا أساسيًا في بنية المؤسسات الضخمة لنقل الأعضاء. وإجمالا خرجت مؤسسة الإسعاف المدني من رحم المؤسسة العسكرية مباشرة وربما كانت هذه هي القفزة الكبيرة في اتجاه عسكرة الطب المدني.

© اللجنة الدولية للصليب الأحمر

هبط الملاك في أوسكودار

أوسكودار هي جزء من اسطنبول الحالية، أما الملاك الذي هبط فيها فلا علاقة له بملاك دورينمات البابلي لكنه ملاك الرحمة ذو الثياب البيضاء وغطاء الرأس الأبيض المعروف بالممرضة. قبل حرب القرم كان التمريض مهنة تطوعية ذات طابع ديني تطهري يقوم بها عدد قليل من البشر في أوقات الأزمات غالبا وليس هناك من أزمة أشد قسوة من الحرب. وقد عرف الغرب في الحروب الصليبية وجود فرقة تمريض كاملة تعرف بالفرسان الهوسبتاليين. لكن وحتى نهاية القرن الثامن عشر لم يكن التمريض مهنة موقرة تليق بالفتيات والنساء المحترمات استنادا إلى واقع المستشفيات نفسها من حيث القذارة والطبيعة المزدوجة، الاجتماعية والطبية،حيث كانت تؤوي المشردين والعجزة والسكارى والمساجين السابقين،إضافة إلى المرضى. لكن عندما أعلن نيكولاس الأول قيصر روسيا الحرب على الدولة العثمانية دخلت إنجلترا وفرنسا الحرب ضد القيصر فيما عرف بحرب القرم. لم تكن حرب القرم مجزرة دموية لكنها شهدت انقلابا حقيقيا في تاريخ الحروب. فالجيش البريطاني الذي دخل هذه الحرب بـ38 ألف مقاتل فقد منهم 19584 قتيلاً من بينهم 3757 فقط قتلى في العمليات العسكرية بينما مات الباقون نتيجة للكوليرا والتيفوس والأسقربوط والبرد الشديد،إضافة إلى 2873 معاقًا بشكل كامل. كانت الفضيحة تتعلق بالمؤسسات المدنية المسئولة عن الإمداد الطبي على وجه التحديد ونشرت التايمز البريطانية تقريرا عن الحالة على جبهة القتال وعن سوء حالة المستشفيات الميدانية في القرم خاصة في أوسكودار مما دفع السيدة فلورنس نايتنجل التي سبق وتلقت قدرا من التدريب على أعمال التمريض في مؤسسة دينية بروتستانتية في ألمانيا وعملت لبعض الوقت بالإسكندرية كممرضة متطوعة إلى الكتابة إلى وزير الجيش البريطاني طالبة الذهاب إلى الحرب في شبه جزيرة القرم. وبعد معارضات ومعوقات وعراقيل كثيرة وطويلة هبطت السيدة ومعها 38 ممرضة متطوعة في أوسكودار. بذلت نايتنجل ورفيقاتها جهودا هائلة في تنظيم ونظافة المستشفى الميداني في أوسكودار قبل الانتقال إلى بالكالافا للهدف نفسه وتحسنت بشكل كبير نسبة الوفيات الناتجة عن المرض بين الجنود. منحت نايتنجل وساما رفيعا، لكن ما توجها فعلا كان تأسيسها لمدرسة حقيقية للتمريض تابعة لمستشفى سان توماس في قلب العاصمة البريطانية سنة 1860 أي بعد وقت قليل من عودتها من الحرب. ويسجل هذا التاريخ البداية الحقيقية للتمريض كمؤسسة تعتمد على التعليم والتدريب والنظام وإحدى الركائز الأساسية التي ساهمت بشكل فعال في تطور الرعاية الصحية في الحياة المدنية. لكن هذا التطور نفسه لم يكن بعيدا عن الحرب أيضا. فالحرب الأمريكية نفسها شهدت ما شهدته حرب القرم من ضحايا نتيجة للمرض وليس نتيجة للعمليات العسكرية. فهذه الحرب التي اشترك فيها 2,5 مليون شخص راح ضحيتها 620 ألف شخص 60٪ من بينهم ماتوا نتيجة للملاريا والتيفود والتيفوس والدرن الرئوي وغيرها من الأمراض المعدية. بعد عامين من بداية الحرب تقبل الجراحون بصعوبة فكرة وجود الممرضات في مستشفياتهم الخشنة لكن النتائج المذهلة التي تحققت على أيدي الممرضات كانت كفيلة بترجيح كفة النساء كممرضات ليس فقط في لعبة الذكور النارية المسماة بالحرب ولكن أيضا في المستشفيات الكبيرة التي ورثها المدنيون من الجنرالات. وهو ما أكدت عليه من جديد الحرب العالمية الأولى التي شهدت زيادة غير مسبوقة في عدد مدارس التمريض وإضافة المزيد من المقررات الدراسية للممرضات. وبعد نهاية الحرب أصدرت مؤسسة روكفلر تقرير جولدمارك الذي أوصى بفصل مدارس التمريض عن المستشفيات كما أوصى بعدم التعامل مع الممرضات باعتبارهن عمالة رخيصة. وفي الحال بدأت الجامعات الكبرى في الولايات المتحدة بإنشاء كليات رفيعة المستوى للتمريض. وفي زمن الكساد الاقتصادي في الثلاثينيات من القرن الماضي عانى قطاع كبير من الممرضات من البطالة وأغلقت العديد من مدارس التمريض أبوابها،لكن مع دوي مدافع الحرب الثانية تزايد الطلب على الممرضات مرة أخرى، وقدم فيلق التمريض العسكري الذي أسس في العام 1943 منحا دراسية مدفوعة الأجر للآلاف من الفتيات لتعلم التمريض وممارسته خلال الحرب. هكذا منحت الحرب للتمريض وجوده بالأساس ثم منحته قبلة الحياة في وقت الركود، وأضفت عليه حضورا مؤثرا كمؤسسة قوية وشديدة الأهمية في طب ما بعد الحداثة فائق التطور.

أوبئة الحروب وحروب الأوبئة

رغم أن "الموت في المعركة" هو التشخيص الأخير للجنود الذين ماتوا خلال الحرب، إلا أن أقطاب المؤسسات العسكرية وأبطال التاريخ من الفاتحين العظام ومؤسسي الإمبراطوريات الضخمة على مر العصور لم ينتبهوا، أو انتبهوا لكنهم لم يحفلوا، إلى أن العدو الرئيسي للجنود في ساحات القتال ليس جنديا آخر في ثياب الحرب بل ميكروب هش لا تراه العين المجردة يصحب الجيوش أينما ذهبت ويزهق من الأرواح أكثر مما تحصد السيوف ودانات المدافع. وفي تاريخ البشر المدون الكثير من الحروب التي انتصر فيها الوباء على الجيوش، فالجيش الفارسي الذي حاول مرارا غزو أثينا هزم أمام الطاعون على أبواب اسبرطة قبل أن تبدأ المعارك. وكتب الطاعون نهاية أثينا القوية في حربها مع اسبرطة (القرن الخامس قبل الميلاد) فأصبحت هشة وسهلة الهضم فابتلعها فيليب المقدوني قبل أن تقضي بعوضة فارسية على الفاتح العظيم الإسكندر بن فيليب. وفي الحملة الصليبية الأولى (1098) ظهر وباء جديد قضى على خيول الفرسان أثناء حصار أنطاكية. وفي الحملة الثانية قاد لويس السابع نصف مليون مقاتل عبر أوروبا وآسيا الصغرى ولم يصل من هذا الجيش إلى الأراضي المقدسة سوى مئات قليلة تركت وراءها طابورا طويلا من الجثث التي حصدها الطاعون. حتى طاعون 1346 الشهير بـ"الموت الأسود" الذي حصد ثلثي سكان أوروبا كان نتيجة مباشرة لحصار طويل فرضه التتار حول مدينة "كافا" على البحر الأسود. ويقال أن الطاعون انتشر بين مقاتلي التتر فأسقطوا الجثث بالمنجنيق إلى داخل المدينة وتركوها تتعفن،فلم تتعفن وحدها فيما يعد سابقة أولى في تاريخ الحرب الوبائية.وفي مطلع القرن السادس عشر ظهر السفلس الوبائي للمرة الأولى في المدن الإيطالية بعد حروب فرنسية في نابولي. وفي 1566 فقد ماكسمليان الثاني جيشا من ثمانين ألف مقاتل في المجر بقوة التيفوس وليس بقوة السلاح. وفقد أحفاد الڤايكنج سيطرتهم على روسيا سنة 1708 بقوة الطاعون. وفي نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر لم يكن الأسطول الإنجليزي أقوى أعداء نابوليون كما يقول التاريخ بل جيش آخر من الميكروبات الضعيفة التي واجهته في مصر وسوريا (الطاعون) بينما كانت حملته على روسيا مثالا يحتذى في الفشل الإستراتيجي. فجيش نابوليون المكون من 320 ألفًا إلى 600 ألف، في تضارب له مغزى، فقد 70٪ من قواته بفعل التيفوس قبل الوصول إلى روسيا، ولم يعد إلى الديار الفرنسية من خمسين ألف مقاتل حاصروا موسكو سوى ثلاثة آلاف فقط فيما دفن الآخرون في الثلج الروسي القاسي. ولم يمض وقت طويل على نهاية بونابرت الدرامية حتى قلبت حرب القرم النسب المتعارف عليها في الحروب. فيسجل المؤرخون أنه مقابل كل جندي يموت في المعارك نتيجة لإصابة مباشرة يموت خمسة جنود نتيجة المرض وليس بقوة السلاح. أما حرب القرم فشهدت وفاة عشرة جنود بفعل المرض مقابل كل جندي يموت بقوة السلاح (1إلى 10). وفي الحرب الأمريكية عادت النسبة إلى معدلها الطبيعي (1إلى 5) لتقفز مرة أخرى في الحرب العالمية الأولى إلى الرقم القياسي الذي سجلته حرب القرم. لكن في هذه الأخيرة لم يكن الطاعون ولم يكن التيفوس أو الإسهال بل الأنفلونزا الشهيرة(1918) التي يحاول الباحثون إلى اليوم معرفة نوع الطفرة البيولوجية التي أطلقت هذا الوباء الذي حصد من المدنيين والعسكريين مالم تحصده الأسلحة الحديثة. في الحرب العالمية الثانية تغير الموقف مرة ثانية بفضل التطعيم والبنسلين والمزيد من وسائل الوقاية والصحة العامة لكن الحرب انتهت بسلاح جديد هو القنبلة الذرية التي مازال يعاني اليابانيون من آثار إشعاعها المسرطن والمشوه للأجنة في بطون الأمهات.

تعبئة الوباء في قنابل

من الطبيعي أن يتعلم الإنسان من خبراته السابقة، لكنه لم يتعلم من الأوبئة التي قتلت من الجنود أكثر مما حصدت السيوف والرماح والبنادق أن يتخلى عن فكرة الحرب بل تعلم منها كيف يصنع الوباء وكيف يعبئه في قنابل. قد يرى البسطاء أن الأسلحة البيولوجية لم تستخدم من قبل وأن ما يشاع عن وجودها هو نوع من الحرب النفسية، لكن الحقيقة المؤلمة غير ذلك. فقد استخدم أجدادنا قبل التاريخ المكتوب كما يقول الأنثروبولجيون الجثث المتعفنة في تسميم مياه الآبار وقت الحرب وغرسوا أسنة الرماح في الجثث المتعفنة وأصابوا بها الأعداء وهو شكل بدائي من الحرب الجرثومية. وفي القرن الرابع عشر،كما ذكرنا،صنع التتار كارثة بالطاعون الأسود. وفي سنة 1763، أثناء الحرب الفرنسية في أمريكا الشمالية، شن الجنرال الإنجليزي جيفري أمهرست حرب إبادة مقصودة على الهنود الحمر في أوهايو بعد اتفاق سلام شكلي بأن أمدهم بأغطية ملوثة بالجدري فانتشر الوباء القاتل بينهم واختفت قبائل كاملة من السكان الأصليين من الوجود وإلى الأبد، وأثبت الفيروس أنه أقوى من مدافع الجيوش. هكذا تعلم البشر أن ينشروا العدوى القاتلة بأيديهم قبل أن يكتشفوا حقيقة الميكروبات وقبل أن يتأسس علم ●●●

●●● البكتريولوجي على يد لويس باستور ورفاقه. وقبل أن تكتمل قدرة الأطباء على عزل الميكروبات وفحصها وقبل أن يتمكنوا من ابتكار الدواء المناسب لعلاجها كانت المؤسسة العسكرية تجند الأطباء والعلماء لأغراض أخرى. ففي الحرب العالمية الأولى استخدمت قنابل الغاز(الخردل والضحك) من قبل الألمان الذين أطلقوا الأنثراكس على الأغنام الذاهبة إلى روسيا والخيول القادمة من أمريكا إلى الجبهة الغربية. وفي الفترة من 1932 إلى 1945 جندت اليابان ثلاثة آلاف من أمهر علماء الميكروبيولوجي فيما عرف بـ"الفرقة 731" بهدف تطوير أسلحة بيولوجية قوية تمت تجربتها على الأسرى ومن ثم على المدن الصينية المحتلة وراح ضحية للهجوم الأول عشرة آلاف صيني، وفي المرة الثانية هوجمت إحدى عشرة مدينة صينية بالأنثراكس والكوليرا والسالمونيلا ولم يعرف أبدا عدد القتلى في هذا الهجوم. وبطريق الخطأ قتلت القوات اليابانية (1941) 1700 من أفرادها في شانج تيه بقنابل بيولوجية. وفي العام 1942 حاولت الولايات المتحدة تطوير سلاح بيولوجي لكنها فشلت لعدم كفاية وسائل الأمان، لكنها، وبعد نهاية الحرب الثانية، أسست برنامجا ضخما لإنتاج الأسلحة البيولوجية اعتمادا على أوراق وأبحاث الفرقة 731 بعد انهيار واستسلام اليابان. وفي الستينيات أعلن جورج كريستوفر وآخرون من العاملين في "المعهد الطبي العسكري للأمراض المعدية" أن الولايات المتحدة تملك ترسانة ضخمة من الأسلحة البيولوجية تضم أنواعا من البكتيريا والفيروسات والفطريات التي يمكنها قتل الكثيرين وبث الرعب في قلوب الأعداء. ولم تكن الترسانة السوفيتية أقل كفاءة من الأمريكية في هذا الشأن. وعلى الرغم من توقيع اتفاقية دولية لتدمير الأسلحة البيولوجية وعدم استخدامها سنة 1972 والاتفاق على الانتهاء من ذلك بحلول عام 1975 إلا أن الدول المائة التي وقعت على الاتفاقية لم تكن مستعدة أبدا لتنفيذ الاتفاق لأن الحروب ـ ببساطة ـ كانت ماتزال مشتعلة. ومن غرائب الأمور أن الإدارة الأمريكية التي قامت بتطعيم 150 ألف جندي أمريكي ضد قنابل الأنثراكس العراقية قبل عاصفة الصحراء كانت تحشو قنابلها الذكية بالبولتونيوم المنضد الذي يرجح أن يكون المتسبب الرئيسي في مرض جديد أصاب قواتها ما يعرف بـ"أعراض ما بعد حرب الخليج". يبدو أن تاريخ الحروب هو نفسه تاريخ الأوبئة والعكس صحيح، ويبدو أن القدماء كانوا على حق عندما قالوا أينما حلت الجيوش حلت معها الأمراض، لكنهم لم يعرفوا أن الحروب الحديثة وضعت من بين أهدافها أن تثري كتاب الطب بأمراض جديدة.

الكلمة اليونانية القديمة الدالة على الجرّاح تعني حرفيا: نازع السهام .

الصحة العامة: الخاسر الأول والرابح الأخير

إذا كانت الحرب خادما شريرا أو خادمة سيئة السمعة للطب أمدته بالكثيرمن التطور المؤسسي على وجه الخصوص، وساهمت بشكل مباشر أحيانا وغير مباشر في أحيان أخرى في العديد من الابتكارات التقنية والمهنية، إلا أن الصحة العامة ـ إجرائيا وإنسانيا ـ كانت تتدهور على الدوام في أوقات الحروب. فخلال الحرب الأولى كانت الحالة العامة للمستشفيات البريطانية تتدهور بشكل ملحوظ فكل الأطباء على جبهات القتال إلا القليل وكل الإمداد الطبي المخصص للمدنيين يذهب مباشرة إلى المحاربين وإذا لم تكن تلبس الزي العسكري فلتمض بأمعاء خاوية. زادت معدلات الوفيات أثناء الولادة وزادت معدلات الوفيات بين الأطفال حديثي الولادة خلال الحرب. وهذان المعدلان على وجه التحديد هما المؤشر الرئيسي لكفاءة النظام الصحي والصحة العامة في أي مجتمع من المجتمعات. كما شهدت الدول الأوروبية المتحاربة زيادة ملحوظة في حالات الدرن والوفيات الناتجة عنه. فخلال الحرب الأولى فقدت ألمانيا 280 ألف مواطن نتيجة للدرن وهو عشر ما فقدته على خطوط القتال وعادت نسبة الوفيات في بريطانيا نتيجة للمرض نفسه إلى معدلات ما قبل 1890. وتشير الأرقام إلى اختفاء النقرس من ألمانيا خلال الحرب لكنها تؤكد ارتفاع نسبة الإصابة بالكساح أو لين العظام والاستسقاء الناتج عن الجوع بمقدار ثمانية أضعاف الأرقام المسجلة قبل الحرب. وتشير الأرقام أيضا إلى انخفاض نسبة الإصابة بالسمنة والنقرس وحصى المرارة وإدمان الكحول في روسيا أثناء الحرب، لكنها تشير من جهة أخرى إلى ارتفاع معدلات الإصابة بقرحة المعدة وتصلب الشرايين والإسهال. وما يقال عن انخفاض مستوى الرعاية الصحية وتدهور الصحة العامة في أوروبا خلال الحرب هو نفس ما يقال عن الدول الأخرى في قارات العالم المختلفة. وما قيل عن الحرب الأولى ينطبق على الحرب الثانية. كانت الأبحاث الطبية تتوقف وتحول الأموال المخصصة لمؤسسات الرعاية الصحية والمستشفيات إلى الصناعات العسكرية وتمويل الجيوش. لكن، ومن الصحيح أيضا أن الدول الأوروبية كانت تدرك ضعف منظوماتها المدنية الصحية وكانت تسعى لصياغة منظومة للصحة العامة ذات طابع دولي إلا أن نجاحاتها البطيئة كانت تتسارع تحت قصف المدافع. ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر ونتيجة للتبادل الواسع للأمراض المعدية بين الدول الاستعمارية والشعوب المستعمرة بدأ التفكير في إنشاء منظمة دولية تنشط للحد من أوبئة ثلاثة: الكوليرا والطاعون والحمى الصفراء. وعقد المؤتمر الدولي الأول للصحة العامة في 1851وبأفق محدود لم يزد على التفكير في إنشاء محاجر صحية في موانئ الأبيض المتوسط. وتوالت المؤتمرات على فترات متباعدة وببطء شديد. ثم ظهر إلى الوجود المكتب الدولي للصحة العامة (OIHP) سنة 1907 واستمر في العمل الجاد حتى 1938. لكن، وكنتيجة مباشرة للحرب العالمية الأولى، أسست منظمة الصحة التابعة لعصبة الأمم سنة 1920واتفق المؤسسون على ضرورة العمل بجدية من أجل الحد من انتشار الأوبئة خاصة الأنفلونزا والتيفوس (أوبئة الحرب الأولى). رفضت الولايات المتحدة الانضمام إلى المنظمة الجديدة حيث لم تكن عضوا في عصبة الأمم. وقامت بتحويل المكتب الدولي للصحة بدول أمريكا إلى منظمة الصحة البا ـ أمريكان(1923). وأصبحت هناك ثلاث منظمات دولية تعمل فيما بين الحربين. وأظهرت الحرب العالمية الثانية ضعف النظام الصحي الدولي وتبينت الحاجة إلى منظمة واحدة قوية ووفق اقتراح تقدمت به كل من البرازيل والصين(1946) ظهرت منظمة الصحة الدولية (WHO) كجزء من بنية الأمم المتحدة إلى الوجود في عام 1948. أما على المستوى القومي فتطور نظام الصحة العامة داخليا خلال الفترة نفسها مثلما تطور نظام التأمين الصحي الشامل في هذه الدول ويحلو للبعض أن يزعم أن هذا التطور كان نتيجة للتطور السياسي والاقتصادي في هذه الدول وليس نتيجة للحرب، لكن بنوك الدم التي ظهرت لأول مرة خلال الحرب الأولى تظهر غير ذلك، ومنشورات الإرشادات الطبية للوقاية من الأمراض التناسلية التي كانت توزع على الجنود الذاهبين إلى القتال تظهر غير ذلك،وبقاء البنسلين على الرفوف اثني عشر عاما (من 1929 إلى 1941) واستخدامه الواسع كمعجزة طبية ورصاصة سحرية لعلاج الجنود في الحرب العالمية الثانية قبل المدنيين يظهر غير ذلك. هكذا وبعد قرون طويلة من السير كتفا بكتف شق الطب والرعاية الصحية طريقهما المنفرد ولم يعد أي منهما بحاجة لحرب تخدمه ويخدمها. ورغم نجاح الحرب في عسكرة الطب (بنية وروحًا) إلا أن هناك فريقًا من الأطباء يؤسس منتديات أخرى لوقف التسلح النووي ويؤسس منظمات أخرى ليس لها أعداء تشارك في هزيمتهم لكنها تسعى لطب إنساني خالص، وهذا حديث آخر ■

© اللجنة الدولية للصليب الأحمر

كلمات

«العسكريون لا يشنون الحروب. الساسة هم الذين يشنونها».

الجنرال وليام ويستمورلاند

«على البشر أن يضعوا حدا للحرب، وإلا سوف تقضي الحرب على البشر»

جون فيتزجيرالد كينيدي

إرنست همنجواي

«إن الحرب ليست قدرا إلهيا، بل هي من فعل البشر، وفعل المؤسسات التي أقاموها، والنهج الذي نظموا به مجتمعهم. وما صنعه البشر بوسعهم تغييره».

فريديريك مورفنسون

من خطاب في ذكرى الحرب الثانية بمقبرة أرلنجتون القومية

برتولد بريخت

«أنتم يا من بقيتم أحياء في المدن الميتة
ارحموا أنفسكم أخيرا
لا تشتركوا في حروب جديدة
يا أيها التعساء
كأنما لم تكفكم الحروب السابقة
أتوسل إليكم أن ترحموا أنفسكم»

برتولد بريخت

جبران خليل جبران

« الأجيال القادمة سوف تتعلم المساواة من الفقر، والمحبة من المحن».

جبران خليل جبران

«إن الحياد هو وسيلة لتحقيق غاية، وليس غاية في حد ذاته»

بيير كراينبوهل

مدير عمليات اللجنة الدولية

«دائما هناك موعد للرحيل، حتى لو لم يكن هناك مكان محدد نذهب إليه».

تينيسي وليامز

«لقد خبرت الحرب كما خبرها عدد قليل من البشر الأحياء الآن، ولا شيء يثير اشمئزازي أكثر منها. لقد دعوت كثيرا لضرورة وضع حد لها، فما تتسبب به من دمار لكل من الصديق والعدو يجعلها عديمة الجدوى كأسلوب لتسوية الخلافات الدولية».

إرنست همنجواي

أعراف الحرب ومبادئ الشريعة الإسلامية

بشأن حماية ضحايا النزاعات المسلحة**

يُسجل للجنة الدولية للصليب الأحمر اهتمامها بجوانب القانون الدولي الإنساني النظرية، وذلك منذ إنشائها في 1863، وشمل ذلك الاهتمام مختلف مراحل تدوين هذا الفرع من فروع القانون الدولي، سواء عندما كانت الحرب وسيلة مشروعة لفضّ المنازعات بين الدول، أو عندما أصبحت محظورة، من حيث المبدأ، بموجب أحكام القانون الدولي، كما شمل تقييم القواعد القانونية المتفق عليها دوليًا في ضوء ممارسات الدول أثناء الحروب. وما من مرحلة من مراحل تدوين أحكام الحرب إلا وسبقتها أو تلتها دراسات وتقارير أُعدت من قِبَل اللجنة الدولية بمبادرة أو تشجيع منها. ولا عجب في ذلك، إذ أن تطور الأسلحة، والفتّاكة منها بالخصوص في قرن من الزمن تجاوز أضعافًا مُضاعفة ما وصلت إليه البشرية من اختراعات في حقل وسائل القتال، عبر آلاف السنين، وهو تطور حمل في طياته قدرات تدمير متصاعدة، لا يمكن لمنظمة قامت على هدف حماية ضحايا الحروب الوقوف حِيال آثارها موقف المتفرّج.

واستكمالاً للعمل الميداني، الذي هو خاصية اللجنة الدولية منذ قيامها، نشدت اللجنة جهود العلماء والخبراء، من القانونيين والعسكريين خاصة، للمشاركة في وضع أحكام دولية تتلاءم وواقع النزاعات المسلحة، وتُواكب تطور وسائل القتال وتحدّ على الأقل من استخدامها أو تسعى إلى حظر بعضها. ومن هنا رَسَخ تقليد اجتماعات الخبراء التي تُفضي إلى عرض نتائج أعمالها على المؤتمرات الدبلوماسية حيث لمندوبي الدول أن يتفاوضوا بشأنها ويقرّروا مآلها.

فرغم التقدم الكبير الذي بلغته المعاهدات المتعلقة بحماية ضحايا النزاعات المسلحة (وتُوّج بإبرام البروتوكولين الإضافيين إلى اتفاقيات جنيف الأربع سنة 1977، وما تبعهما من مواثيق بشأن بعض أنواع الأسلحة أو ملاحقة مرتكبي جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية)، أفرزت الحروب الحديثة تحديات متكررة واسعة النطاق، لعل سمتيها البارزتين تجاهل الأحكام القانونية وتغليب المصالح السياسية والعسكرية على الاعتبارات الإنسانية، علمًا بأن قوانين الحرب وأعرافها تقوم على السعي إلى تحقيق الحد الأدنى من التوازن بين ضرورات الحرب ومقتضيات الإنسانية، وبدون ذلك لا مجال للحديث عن قانون يحدّ من شطط الحروب. وإزاء شدة وطأة النزاعات المسلحة الحديثة على غير المقاتلين، وفي مقدمتهم السكان المدنيون، وعلى الممتلكات المدنية مثل مؤتمر جنيف الدولي في 1993 حول «حماية ضحايا الحرب: صحوة الضمير الإنساني ودعوة إلى الأطراف المتحاربة خصوصًا والمتعاقدة عمومًا، للالتزام بتلك الأحكام وفرْض احترامها. وجاء المؤتمر الدولي السادس والعشرون لحركة الصليب الأحمر والهلال الأحمر (جنيف 1995) مؤكدًا لمضمون إعلان مؤتمر 1993 وداعيًا اللجنة الدولية إلى إعداد دراسة عن قواعد القانون الدولي الإنساني العرفية، ذلك أن حصرها أو تحديدها يسهم في تسهيل تطبيقها. وتنفيذًا لقرار المؤتمر الدولي دعت اللجنة الدولية مجموعة من الخبراء الذين يمثلون مناطق العالم كافة للمشاركة في إعداد الدراسة، واختير أعضاء فُرقاء البحوث الوطنية والدولية واللجنة التوجيهية والخبراء الجامعيون والحكوميون من أبرز الدول التي خاضت نزاعات مسلحة في العقود الماضية القريبة، إلى جانب الباحثين التابعين للجنة الدولية، وضمّت قائمة الخبراء عددًا من فقهاء القانون الدولي المسلمين، من عرب وغيرهم.

استغرق إعداد الدراسة مدة طويلة بلغت ثماني سنين قبل أن تصدرها مطابع جامعة كمبريدج في آذار/مارس الماضي، في ثلاثة مجلدات ضخمة. إلا أن لطول المدة مبررات وجيهة منها تمكين اللجنة الدولية من إجراء المشاورات الأولية اللازمة وتمكين اللجنة التوجيهية من وضع أسس الدراسة ومناقشتها بتعمق تمهيدًا لتحقيق الإجماع المطلوب واختيار الخبراء المكلفين بإعداد التقارير عن الممارسات الوطنية المتعلقة بالقواعد موضوع الدراسة، ومنح الخبراء الوقت الكافي للبحث عن الوثائق وانتقاء الحالات التطبيقية التي تقتضيها التقارير قبل الشروع في تحريرها، ومراجعة التقارير وترجمتها وترجمة ملاحقها ومراجعة مسودة الكتاب كله. ومن حيث المضمون، حددت الدراسة (الصادرة بالإنجليزية) مائة وإحدى وستين قاعدة عرفية قُسمت إلى أربعة وأربعين فصلاً في ستة أجزاء تحت عناوين: مبدأ التفرقة؛ الأشخاص والأعيان المحميون على وجه الخصوص؛ وسائل قتال معينة؛ الأسلحة؛ معاملة المدنيين والأشخاص العاجزين عن القتال؛ ثم التنفيذ.

وقد رغب الكثير من واضعي أسس الدراسة في توضيح موقف القانون العرفي من الأسلحة النووية، ومن أجل ذلك خُصص لها الفصل 22، إلا أن بدايات إعداد الدراسة تزامنت وعرض موضوع مشروعية استخدام الأسلحة النووية على محكمة العدل الدولية لإبداء الرأي بشأنها، وأصدرت المحكمة رأيها الاستشاري في 8/7/1996 مؤكدة بالخصوص عدم وجود أي حظر عالمي شامل، لا في القانون الدولي التعاهدي ولا العرفي، للتهديد باستخدام الأسلحة النووية أو لاستخدامها. فتجنبت الدراسة الموضوع.

إن المعاهدة والعرف هما مصدرا القانون الدولي الأساسيان، وينسحب هذا على القانون الدولي الإنساني المتعلق بحماية ضحايا النزاعات المسلحة بصفته فرعًا من فروع القانون الدولي العام. وإذا كانت أغلب أحكامه مدونة في اتفاقيات عقدتها الدول، وأهمها اتفاقيات جنيف، فإن أعرافه مستمدة من ممارسات الدول، سواء كان ذلك في إطار الكتيبات العسكرية أو التشريعات الوطنية أو البيانات الرسمية الصادرة عن ممثلي السلطات المختصة، أضف إلى ذلك قرارات المحاكم في إنشاء القاعدة العرفية. وتستند إلزامية القاعدة العرفية إلى كونها تعبيرًا عن ممارسة الدول على نطاق واسع وشامل لجميع مناطق العالم وعلى درجة من الاتساق مما يجعلها مقبولة بصفتها قانونًا. وتشمل إلزامية القاعدة العرفية جميع الدول دون اعتبار لموافقتها على المعاهدات ذات الصلة أو عدم موافقتها.

وبالنظر إلى قانون النزاعات المسلحة، من المعلوم أنه لا يقتصر على اتفاقيات جنيف الأربع لسنة 1949، التي حظيت بقبول عالمي لا يُضاهى، من حيث عدد الدول المصادقة عليها، خلافًا لمعاهداته الأخرى مثل بروتوكولي 1977 الإضافيين إلى اتفاقيات جنيف. وهنا تكمن قيمة القاعدة العرفية خاصة بالنسبة للنزاعات المسلحة الداخلية أو حروب التحالف (مجموعة دول ضد دولة أو دول) أو العمليات المسلحة التي تقوم بها منظمات دولية عالمية أو إقليمية.

باستعراضنا للقواعد التي تضمنتها الدراسة نلاحظ أنها متصلة اتصالاً وثيقًا بأهم أُسس القانون الإنساني وهي الإنسانية والضرورة الحربية والتفرقة بين المقاتلين وغير المقاتلين والأهداف العسكرية والأعيان المدنية والتناسب. ونجد الأسس ذاتها في بطون مراجع الفقه الإسلامي، وإن اختلفت الألفاظ والمصطلحات. أما القواعد التفصيلية فليس فيها ما يعارض جوهر الأحكام الشرعية ذات الصلة. وفي القواعد الكلية المستمدة من الفقه الإسلامي أن «المعروف عرفًا كالمشروط شرطًا» وأن «العادة محكّمة. ومن أهم المبادئ الشرعية حرمة الدم والمال والعِرض، وهي تنطبق على جميع فئات غير المقاتلين، وفي هذا

د.عامر الزمالي*

تطبيق لمبدأ الإنسانية. وفي الشريعة تُقدر الضرورة بقدرها، وهي مقيدة كما هو الحال في القانون الدولي الإنساني، والتناسب يعني ضبط استخدام القوة المسلحة حتى لا تتجاوز آثارها المدمرة الحد المعقول وتعصف بمن لا صلة لهم بالمعارك، ونعرف تشدد الأحكام الشرعية في حظر الإفساد في الأرض بكل أشكاله. وتوضح الآية الكريمة «وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ» (البقرة: 190) مبدأ التفرقة، وفي النهي عن التعدي دعم صريح لقاعدة التناسب. وإذا كانت أحكام القانون الدولي الإنساني تقوم في أساسها على مبدأ المعاملة الإنسانية، فإن الشواهد المستمدة من الكتاب والسنة ومن ممارسات الخلفاء وأمراء الجيوش الإسلامية، والتي تأمر بتلك المعاملة أو تحث عليها، كثيرة كما هو معروف من كتب الفقه والتاريخ والسيرة. وإذا كانت هناك انتهاكات في الحروب التي عرفتها دول الإسلام المتعاقبة، في علاقاتها الداخلية أو في صراعها مع القوى الخارجية غير الإسلامية، وأي حرب تخلو من الانتهاكات؟، فلا يمكن نسبتها إلى الشريعة بأي حال. وإذا أمعنا النظر في عناوين فصول الدراسة، تبين لنا أن أيًا منها ومن القواعد المدرجة تحت كل فصل يمكن وضعها في ميزان الشرع الإسلامي وبحثها استنادًا إلى معاييره، ويستكشف الباحث أن الرصيد الفقهي يزخر بالمبادئ العامة وبالحلول العقلية والنقلية التي تتسع لاستيعاب قواعد القانون الإنساني العرفي. ومن ميزات هذه القواعد أنها تُغني عن الكثير من الدقائق المستعصية على الفهم أحيانًا، وتوجز أحكامًا كثيرة دون الإخلال بجوهرها ويمكن تدوينها في كتيبات تُحفظ بسهولة وهي من الوضوح بما لا يجوز معه التعلل بالغموض أو الجهل أو النسيان.

ولا يفوتنا التنويه باستبعاد مبدأ المعاملة بالمثل في الالتزام باحترام القانون الدولي الإنساني وضمان احترامه (القاعدة 140). واستثناءً من القانون الدولي الذي يكرس مبدأ المعاملة بالمثل ويلتقي في ذلك مع الشريعة الإسلامية، لا تقبل أحكام القانون الإنساني هذا المبدأ لخطورته على مصير الضحايا والممتلكات المدنية. وَهَبْ مثلاً أن طرفًا ما قتل الأسرى أو المعتقلين التابعين للخصم، فلا يجوز لهذا الأخير الرد بالمثل، بموجب القانون الإنساني، وقِسْ على ذلك. وفي الشريعة لا يُقبل بأي وجه من الوجوه ارتكاب المحرمات، حتى في أرض الحرب، ولا يبيح تطبيق مبدأ المعاملة بالمثل أفعالاً مثل الاغتصاب أو التمثيل بالجثث.

إن الدراسة الجديدة تمثل حدثًا في تاريخ القانون الدولي الإنساني، وستتلقفها الأيدي والأقلام ويتناولها الخبراء وفقهاء القانون الدولي بالتحليل والمناقشة، ونأمل أن تساهم القواعد التي طال انتظار صياغتها في تسهيل تنفيذ القانون الدولي الإنساني واحترامه وفرض احترامه في هذه الأيام التي تُنتهك فيها مبادئ الأحكام الإنسانية تحت ستار الحرب المزعومة على الإرهاب وحروب أخرى. ويتعرض فيها العمل الإنساني والقائمون به للتهديد وشتى أنواع المضايقات. وفي ذلك إضرار لا يخفى بحقوق الضحايا في الحماية والمساعدة. ومع ذلك، لا مجال للتخلي عن تلك الحقوق، لأن كرامة من يحتاجون المساعدة زمن الحرب، وبعدها، تقتضي التمسك بمبادئ القانون الراسخة والمتفق عليها عالميًا. وما القواعد العرفية التي أوضحتها الدراسة الجديدة إلا دعم لقوة القانون أمام صلف قانون القوة وجبروته ■

(*) مستشار شؤون العالم الإسلامي باللجنة الدولية للصليب الأحمر.

(**) ملاحظات عامة بمناسبة صدور الدراسة الدولية عن «القانون الدولي الإنساني العرفي».

الإنسانية والعمل الإنساني

شرخ في حاجز زجاجي

واقفا كنت على زجاج متناثر، كان منذ أقل من ساعتين نوافذ كافتيريا مبنى الأمم المتحدة في بغداد. وعلى بعد مترين ربما أو أقل كانت عيناي مثبتتين على ساعة يد، كان مؤشر الثواني في الساعة ما زال يعمل وأرى الوقت يقترب من الخامسة والنصف مساء، معصم كثيف الشعر ما زال بداخل الساعة فضية اللون والأصابع ممتدة في سكون مستمر تلامس الأرض المتربة. بيد أن الجسد كله كان ميتا ومغطى بملاءة متسخة على محفة عسكرية لابد أن الجنود الأمريكيين أتوا بها وغيرها. أكثر من عشر محفات تحمل أجسادًا أخرى في وسط موقف سيارات فندق القناة ـ مقر الأمم المتحدة في بغداد. من هو؟ لا أعرفه، هو أو الجثث الأخرى النائمة في صف بجواره. ما زال المشهد محفورًا في ذاكرتي. ما زال.

ستة أيام قضيتها في بغداد عقب التاسع عشر من أغسطس/ آب 2003 عندما فجرت سيارة ملغمة المبنى وحولت قطاعا كبيرا منه إلى أنقاض، مات تحتها أكثر من عشرين من زملائي في الأمم المتحدة من العراقيين والأجانب.

قبل هذا اليوم بنحو أربع سنوات تركت عملي في واشنطن صحفيا. توجهت إلى باكستان وأفغانستان لأعمل مع الأمم المتحدة مشيعا بنبرات دهشة من بعض الزملاء الذين تعجبوا وتساءلوا: كيف أنتقل من واشنطن ونيويورك إلى إسلام أباد وكابول؟ ومشيعا كنت أيضا بنبرات حسد من آخرين اعتقدوا أنني هجرت الصحافة إلى الأمن الوظيفي ومغريات المنظمات الدولية. في الحقيقة كنت على قلق كأن الريح تحتي، وكنت قد مللت العمل الصحفي وتغطية السياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط وفضيحة مونيكا لوينسكي وفستانها الأزرق وما حمله من آثار رئاسية .. إلى آخره، فحزمت حقائبي في أواخر عام 1999 وتوجهت إلى إسلام أباد بعد أسابيع قليلة من التفجير النووي الباكستاني.

لم أندم يوما واحدا على هذا القرار. سافرت كثيرا داخل أفغانستان وباكستان والمناطق الفلسطينية المحتلة وإيران والقوقاز وآسيا الوسطى. وخبرت صنوفا وأنواعا من المعاناة البشرية كنت اعتدت أن أراها على شاشة التلفزيون. ونما لدي حاجز زجاجي بين مشاعري وبين الواقع كي يحميني كما يقول خبراء علم النفس من هذا التعرض المستمر للمعاناة البشرية.

ولكن انفجار بغداد الذي حطم نوافذ المبنى وقطاعا كبيرا منه شرخ أيضا هذا الحاجز الزجاجي بيني وبين مشاهد الفقر المدقع والموت والمآسي الفادحة التي عايشتها عن قرب طوال هذه السنوات الأربع وفتح باب المأساة على اتساعه لتعود كل المشاهد دفعة واحدة وكان أن قررت بعد قليل أن أنقطع عن العمل عدة أشهر وأعيش أبعد ما يكون عن تلك المشاهد. والآن وقد عدت مرة أخرى إلى العمل، أعتقد أنني مسلح بوسائل أخرى للشعور بعمق معاناة الآخرين دون خوف، ودون سقوط في بئر الشفقة أو ابتعاد خلف حواجز مصطنعة.

هناك مذاهب متعددة بين العاملين في مجال الإغاثة من أجل حماية أنفسهم وعواطفهم من المعاشرة اليومية للبؤس، ومتابعة القدرة اللامعقولة للبشر على إنزال أصناف الهوان ببعضهم البعض: هناك من يتعامل بحيادية مع البؤس البشري ويتعامل مع مهامه اليومية بشكل وظيفي ومهني، وهناك من يتعامل مع وظيفته على أنها رسالة ومهمة إنسانية لتخفيف المعاناة، وهناك من يمزج بين الاتجاهين. ولكن الأغلبية في كل الأحوال تضع حاجزا زجاجيا ما بين مشاعرها وبين المشاهد الدامية التي يتعرضون لها ـ ربما أحيانا شخصيا ـ في المناطق التي يعملون بها، والتي في أغلبها تعاني من صراعات ونزاعات مسلحة وأعمال قتل منظمة وعنف يومي يعيش معه البشر بشكل لا إنساني لا تتحقق معه أحيانا الحدود الدنيا من إعلانات العالم لحقوق الإنسان.

وفي الحقيقة فإن معظم المعاناة الإنسانية التي شاهدتها عبر عملي في كثير من مناطق العالم في السنوات الخمس الماضية من فقر وجوع ومرض، هي معاناة تسبب فيها البشر لبشر آخرين.

كانت أفغانستان مدرسة بالنسبة لي، إذ كان من الواضح أن النساء يعانين أكثر من الرجال، والأطفال أكثر من الكبار، والشيعة أحيانا أكثر من السُنّة، وقبائل دون أخرى،

وبالطبع الفقراء دون الأغنياء الذين حتى إذا استمروا في العيش في أفغانستان، أمراء للحرب أو تجارا للمخدرات أو زعماء محليين، أرسلوا عائلاتهم إلى باكستان المجاورة لتعيش في أمن وسلم نسبي.

وحتى داخل مخيمات النازحين واللاجئين تجد تراتبية للمعاناة، وتجد الضحايا مراتب. منهم من يتسبب في معاناة أكثر لآخرين ويحرمهم من حقوقهم. وبمعنى آخر فإن الرجل يحصل على نصيبه من الطعام في معظم الأحيان قبل المرأة والكبار قبل الأطفال وربما لهذا السبب تحديدا تسعى العديد من منظمات الإغاثة إلى إعانة النساء والأطفال أولا.

كيف يمكن لعامل الإغاثة أن يحتفظ بمفهوم مفارق ومثالي عن الإنسانية والبشر في قلب هذه المأساة؟ هل من المفيد له أن يحتفظ بمثل هذا التصور على أي حال رغم شهادات الواقع اليومية المضادة؟ كيف يمكن له أن يحتسي شرابه في آخر يوم طويل ويتناول طعامه بعد أن نفض عن نفسه تراب اليوم دون أن يفكر في المعاناة الجهنمية التي يمر بها الآخرون. لا شك أن لتكرار التجربة اليومي أثره في ثلم حدة المشاعر إزاءها ومع مرور الوقت يقوم هذا الحاجز الزجاجي ليفصل بين المعاناة اليومية للآخرين وأحاسيس ومشاعر عامل الإغاثة، بيد أن هذا الحاجز يهدد في أحيان كثيرة بتحويل عامل الإغاثة إلى مجرد موظف بيروقراطي وساعتها أيضا يتحول البشر إلى أرقام وإلى مستفيدين من المعونات وأحيانا إلى عبء. ويصير السؤال الحقيقي: هل التعاطف والإحساس بمأساة الآخرين شرط لنجاح العمل الإنساني؟ واعتقادي المؤقت حتى إشعار آخر أن التعاطف والتماثل مع مأساة الآخرين شرط لا غنى عنه من أجل تقدم البشرية نحو حل "إنساني" و"سلمي" وعادل لمعظم مشاكلها ولكنه ليس شرطا حيويا لمساعدة الآخرين بصورة مهنية. المشكلة في حسباني أنه دون هذا التعاطف والتماثل يصير عامل الإغاثة نفسه مهددا بفقدان جزء من إنسانيته وجزء أكبر من إيمانه بمفاهيم الإنسانية وحقوق الإنسان.

لا شك أن معظم المعاناة التي يمر بها البشر في العالم الآن يتسبب فيها بشر آخرون وأن علينا أن نقوم بمراجعة جادة لمعظم المفاهيم القائمة عن الإنسانية وماذا يعني أن تكون إنسانيا.

علينا أن نقوم بهذه المراجعة ليس فقط من أجل الضحايا الفلسطينيين واليهود وغيرهم ممن يتصدرون شاشات التلفزيون والصحف كل يوم، بل من أجل الطفل ابن الشهور العدة المدفون في قبر ترابي ـ لا بد أنه اندثر بعدما شاهدته ـ بالقرب من مدينة هيرات في غرب أفغانستان منذ ثلاث سنوات، والولد ابن السنوات السبع الراقد هيكلا عظميا في سرير في أديس أبابا ينتظر موتا لم يعرف قبله حياة تذكر بسبب فيروس الإيدز، والعجوز الطاجيكي وهو يخر منهارا على الأرض يحاول تقبيل قدمي بعدما وصل إلى مخيم لاجئين من قريته الجائعة في غرب أفغانستان، والرجل الأوزبكي ابن الأربعين الذي أخذ يلتهم الجراد والأعشاب المطهوة سويا أمامي ذات يوم شتائي بارد قرب مزار الشريف في شمال أفغانستان قائلا: "ها قد أصبحنا حيوانات"!، والكهل الفلسطيني الذي بكى أمامي في قطاع غزة من هوان قبول الإعانة مع القدرة على العمل.

إنهم بشر. مثل بعضنا. وكل معاناتهم بسبب بشر. مثل بعضنا أيضا!

لكل البشر حقوق إنسانية لا خلاف كبيرًا عليها سواء كانت في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أو في غيرها من النظم الأخلاقية أو القانونية ولكن كل البشر لا يمارسون هذه الإنسانية إزاء الغير أو يحرمون منها من قبل الغير. والمسافة التي يتعين على عامل الإغاثة والقائمين على العمل الإنساني عبورها، في أحيان كثيرة، كي لا يتحول حاجز حماية الذات الزجاجي إلى جدار، هي تلك المسافة بين الواقع البشري المؤلم وبين ما يتعين أن تكون عليه الإنسانية. وهي تلك المسافة الملغمة بالمثالية الواهمة عما ينبغي أن يكون عليه البشر، أو الواقعية التي تصدمك يوميا بما هم عليه فعلا، وربما لهذا فإنها مسافة شبه مستحيلة، بيد أنه يتعين علينا جميعا أن نستمر في المحاولة. يوما بعد يوم، وضحية بعد الأخرى، كي لا نصبح ضحايا أو جلادين، أو حتى أسوأ من هذا وذاك، أي مشاهدين مستفيدين من استمرار المأساة! ■

خالد منصور*

الرسم: نديم الكوفي**

(*) كاتب مصري يعمل في الأمم المتحدة وهذه المقالة تعبر عن وجهة نظره الخاصة ولا تمثل بالضرورة وجهة نظر الأمم المتحدة.

(**) فنان عراقي يعيش ويعمل حاليًا في هولندا.

اصطفّي أيتها الأعداد
ستة آلاف، عشرة آلاف، عشرون ألفا، ثلاثون ألفا

انهضوا أيها الموتى
فلستم سوى أرقام!

أفاح العام رائحة جثة

بأسابيعه الاثنين وخمسين
وأيامه الثلاثمائة وخمسة وستين
وجموع ساعاته
وفيالق دقائقه

بالموسم الجديد
مكدسا مزيدا من الأسلاب

بالعشرة والمائة والألف
هكذا، وهلم جرا
تحاك الخطة الغامضة

انتظموا جنبا إلى جنب
يا كل القتلة الفرائس
يا كل القتلة القتلة

أيتها الحمامات الذبيحة
أيها الموارون خارج الثرى
أيها الأبرياء المنتقم منهم
أيها الضحايا القتلة

يا كل القتلة المقتولين
يا كل القتلة القناصين

الموت يحصدكم جميعا يا إخوتي
ويمحوكم مرة واحدة

كونوا بقاياه

هذه الطرود من الجذوع
مزق الرؤوس هذه
هذا الكم من الأفخاذ والأيدي والأعضاء
هذه البقايا التي ترشح
هذه الأجزاء النتنة
وهذه الأمعاء المفككة

اقطعوا عصب الحياة الوحيد

دعوا أنفسكم للالتهام
فأنتم خبز الموت!

اصطفي أيتها الأفواج!
وانتظموا أيها العزّل!

فالعنيفون والودعاء
والمشايعون والمشككون
والمؤمنون بإله
والمؤمنون بغير إله
ومن لا تقوى لديهم
ولا عقيدة
لم يعرفوا كيف يوقفون المجزرة

من سيميزكم هيكلا عظميا أو جيفة
عندما يستعيدكم الرماد؟

أشد جفوة من الأشياء
أكثر دكنة من الرماد
أيتها الجثث اصطفي!

محاصرين ـ مهاجمين
مدافعين ـ منقضين
جلادين ومعذبين
أطفالا من كل شرعة
منتحرين دمويين
شبابا بأعين من رصاص

أهدروا حصادكم
اخنقوا الماء
طاردوا الضوء
ارشقوا بالرصاص حوائطكم وحدائقكم

لا تأخذوا سجناء، يا إخوتي

لتكن مدينتكم مذبحا!
ولتتحول تلالكم إلى مدافن للعظام!

حطموا أزقتكم
واسلبوا منازلكم
واجتروا شكاواكم
وانتشوا بالنهب

اسخروا والعنوا

سيسخر منكم الزمن!

أرسلوا مبعوثيكم لكل الموائد المستديرة!

المتحجرون زمنا ومكائد
الذين يتحدثون باسمكم

أنتم الذين لم يكن لهم أبدا اسم!

معاهدات بالية
مهادنات مخترقة
تحالفات للتملص منها

أندريه شديد
الرسم: علي مُقوّص**

خبز الموت*

(*) هذه القصيدة من مجموعة الكاتبة الشعرية:
Cérémonial de la violence (مراسم للعنف)، 1976.

(**) رسام وحفّار سوري، يعيش ويعمل في دمشق.

هم يروحون ويغدون
كمركبة هزلية

يثرثرون ويتاجرون
بينما أنتم تهلكون!

يماحكون ويخطبون
بينما تخرسكم الأرض
ويمحوكم الزمن

ليوحدكم الموت

اذبحوا الأمل، في يأس، يا إخوتي
فسخوا الرجاء حتى العظم!

كان الانتقام مخرجكم
والكراهية مكيدتكم

ولكن من الذي يكسب اللعبة؟
من الذي يسلحكم؟

أنتم بلا حلم ولا مستقبل
ولا وجوه مميزة

ذائعو الصيت، طالما كنتم في محراب الموت

بلا ذكر، طالما كنتم في الرحم الجنائزي

فكيف ستحيدون عن صورتكم يا إخوتي؟

إن تاريخكم هو التاريخ

هو انعكاس لعرقنا الكاره
لوحوشنا الهامدة
لسحننا الهائجة

سخيفة هي الكلمات
والكتابة بلا جدوى
وجامحة مع ذلك، سخرية القلب

نحن لا نعرف ولا نرى
من الذي يدفع نحو هذه القذارة
وأي داع يبرئ هذه المجازر

أي دمار يلتهمنا
ويجرفنا بعيدا هكذا؟

أفعالكم تهلكنا
وتبيدكم يا إخوتي

فتوقفوا عن تغذية الموت! ■

© اللجنة الدولية للصليب الأحمر

تفاح الشام

لا شك أن من يمر بالمنطقة العازلة بين سوريا وإسرائيل في مرتفعات الجولان يجد المشهد ثقيلا على القلب لأنه غالبا ما يكون الأمر بلا عودة. أما في هذه المرة فقد كان العبور مرادفا للأمل عندما نُقل نحو 4000 طن من التفاح عبر الحدود لتُباع في دمشق، وبذلك تتمكن مئات الأسر السورية من حماية مورد رزقها الرئيسي.

في صباح يوم مشمس من أيام الاثنين في شهر مارس، في الساعة 8: 45 صباحا، تحركت حافلة تابعة للجنة الدولية للصليب الأحمر على طريق أسفلتي قديم محاط بالألغام والأسلاك الشائكة وأبراج المراقبة. هذا هو معبر "القنيطرة" الواقع في المنطقة العازلة التي تشرف عليها الأمم المتحدة، والذي يفصل بين مرتفعات الجولان المحتلة والجزء الرئيسي في سوريا. الشاحنة محملة بتسعة أطنان مترية من التفاح الذي أنتجه مزارعو الجولان. وبعد 50 مترا فقط وحوالي 45 دقيقة بدأ تفريغ التفاح عند نقطة المرور التي تسيطر عليها سوريا. في هذه اللحظة، امتلأت عينا المزارع محمد صالح بالدموع، وهو يقول: "هذه لحظة تاريخية، لأول مرة منذ 38 عاما يصل تفاحنا إلى أسرنا على الجانب الآخر".

استولت إسرائيل على مرتفعات الجولان في حرب 1967 ولا تزال تحتلها حتى الآن. ونتيجة للاحتلال تفرق العديد من عائلات الجولان بين من فروا ومن بقوا في ديارهم تحت الاحتلال حتى يومنا هذا. وظل أفراد الأسر في الجولان لعقود يصعدون ما أصبح يُعرف باسم "ربوة الصياح" مجهزين بمكبرات للصوت، ويصيحون إلى أقاربهم على الجانب الآخر لكي يتبادلوا الأخبار العائلية.

في ظل احتلال الجولان، كان نقل التفاح حدثا ذا دلالة كبيرة للمزارعين السوريين. فنقله لم يساعد 1000 أسرة على كسب قوتها فحسب، بل بنى جسرا أيضا بينهم وبين أحبائهم، وفتح نافذة للأمل في المستقبل.

وتربة الجولان الخصبة تجعلها واحدة من أفضل أماكن المنطقة لزراعة التفاح. وتمثل تجارة التفاح نحو 50٪ من دخل السكان. ومنذ 1967 كان تفاح الجولان المعروف بمذاقه الفريد يُباع بالأساس في الأسواق الإسرائيلية والفلسطينية، ولم يدخل أبدا السوق السورية بسبب النزاع بين سوريا وإسرائيل وعدم وجود علاقات تجارية بين البلدين.

لكن السنوات الأربع الماضية كانت شديدة الصعوبة لمجتمع الدروز الذي يحيا في الجولان. إذ ظهر التفاح الذي تنتجه المستعمرات الإسرائيلية في مرتفعات الجولان كمنافس جديد قوي في السوق الإسرائيلية. وبالتالي انخفضت أسعار تفاح الجولان انخفاضا شديدا. فضلا عن ذلك، فإن السوق الفلسطينية التي كانت تستهلك في وقت من الأوقات أكثر من 40٪ من تفاح الجولان أُغلقت عقب اندلاع أعمال العنف في أواخر عام 2000. وكان على المزارعين إما أن يبيعوا إنتاجهم من التفاح بأسعار زهيدة أو ألا يبيعوه على الإطلاق. ويوضح محمد صالح الوضع قائلا: "بدأنا نفكر في بدائل لإنقاذ مصدر الدخل الرئيسي لأغلب السكان. وقررنا جميعا أن سوريا يمكن أن تساعدنا وتنقذ إنتاجنا من خلال نقله إلى بلادنا".

انطلاقا من هذه الفكرة، أنشأ المزارعون لجنة وبدأوا في مفاوضات للحصول على موافقة السلطات السورية والإسرائيلية. وكان لابد للقيام بهذه العملية من إشراك كل من اللجنة الدولية للصليب الأحمر وقوة فض الاشتباك التابعة للأمم المتحدة، وهي البعثة التي تراقب تنفيذ الهدنة. ووافقت اللجنة الدولية بوصفها وسيطا محايدا على تسهيل العملية من الناحية اللوجستية، وذلك من خلال توفير الشاحنات والسائقين الأجانب لعبور المنطقة الفاصلة. ومن جانبها عملت بعثة الأمم المتحدة لفض الاشتباك على ضمان سير الأمور دون عقبات في أثناء هذه الفترة التي استمرت 25 يوما من خلال تنظيم المرور المكثف، وإعداد المنطقة لتفريغ حمولة الشاحنات وترتيب أمر مراسلي وسائل الإعلام.

شعر المقيمون في الجولان في هذه الفترة بالفخر والسعادة، وإن كانت مشاعرهم ممزوجة في الوقت نفسه بإحساس بالشوق والإحباط. وكما عبر صالح أبو رافع في كلماته: "أدرك أننا على الأقل نتقاسم الآن التفاح نفسه مع أفراد آخرين من عائلتي. أشعر كأن جدي يمسك بيدي وهو يأكل تفاحنا، ونحن جميعا نتطلع إلى اللحظة التي يُجمع فيها شملنا أخيرا دون تعقيدات" ■

القاهرة :

ندوة للاحتفال بالثامن من مايو/ آيار

شاركت بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر بالقاهرة مع المركز القومي للبحوث التربوية والهلال الأحمر المصري في ندوة للاحتفال باليوم العالمي للصليب الأحمر والهلال الأحمر 8 مايو/ آيار. أدار الندوة د. **رسمي عبد الملك** أستاذ الإدارة والتخطيط وأشرفت عليها أ. **ملك مدكور** من الهلال الأحمر المصري واستضافها د. **مصطفى عبد السميع** مدير المركز القومي للبحوث التربوية.

وصرح **جيرار بترينيه** رئيس بعثة اللجنة الدولية بالقاهرة بأن التعاون الوثيق بين اللجنة الدولية والجهات المعنية قد ساهم كثيرًا في دعم الأنشطة الإنسانية ونشر أحكام القانون الدولي الإنساني ليس فقط في مصر ولكن في المنطقة العربية ككل. كما حيا **بترينيه** جهود اللجنة القومية للقانون الدولي الإنساني التي ساهمت بدور فعال في التغطية الإعلامية المتميزة التي صاحبت احتفالية 8 مايو.

الرياض :

رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر في زيارة رسمية إلى المملكة العربية السعودية

في منتصف مايو/ آيار، قام **جاكوب كيلنبرغر**، رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر، بزيارة رسمية إلى الرياض استغرقت ثلاثة أيام، وهي الزيارة الثانية له منذ عام 2003. وقد التقى **كيلنبرغر** في زيارته كلا من **صاحب السمو الملكي ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء وقائد الحرس الوطني والنائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام وسمو أمير منطقة الرياض**. كما أجرى محادثات مع نائب رئيس مجلس الشورى ومسؤولين في جمعية الهلال الأحمر السعودي. وقد تم توقيع مذكرة تفاهم بين اللجنة الدولية وجمعية الهلال الأحمر السعودي واللجنة السعودية لإغاثة الشعب الفلسطيني بموجبه سيقدم الهلال الأحمر السعودي مبلغ 1,1 مليون دولار أمريكي كمساهمة في برنامج المساعدة التي تخصصها اللجنة الدولية للفلسطينيين في الضفة الغربية.

تونس :

اتفاق لصالح الأشخاص المحرومين من الحرية

وقعت السلطات التونسية واللجنة الدولية في 26 أبريل/ نيسان اتفاقًا حول الأنشطة الإنسانية للجنة الدولية لصالح الأشخاص المحرومين من الحرية. يسمح هذا الاتفاق للجنة الدولية بزيارة أماكن الاحتجاز في تونس بانتظام من أجل تقييم الأحوال المعيشية للأشخاص المحرومين من الحرية، وكيفية معاملتهم. نص الاتفاق على تسليم التقارير التي يتم إعدادها عقب الزيارات إلى السلطات التونسية دون غيرها. وقد بدأت الزيارات في 6 يونيو/حزيران 2005، بتنظيم وإشراف البعثة الإقليمية للجنة الدولية في تونس العاصمة.

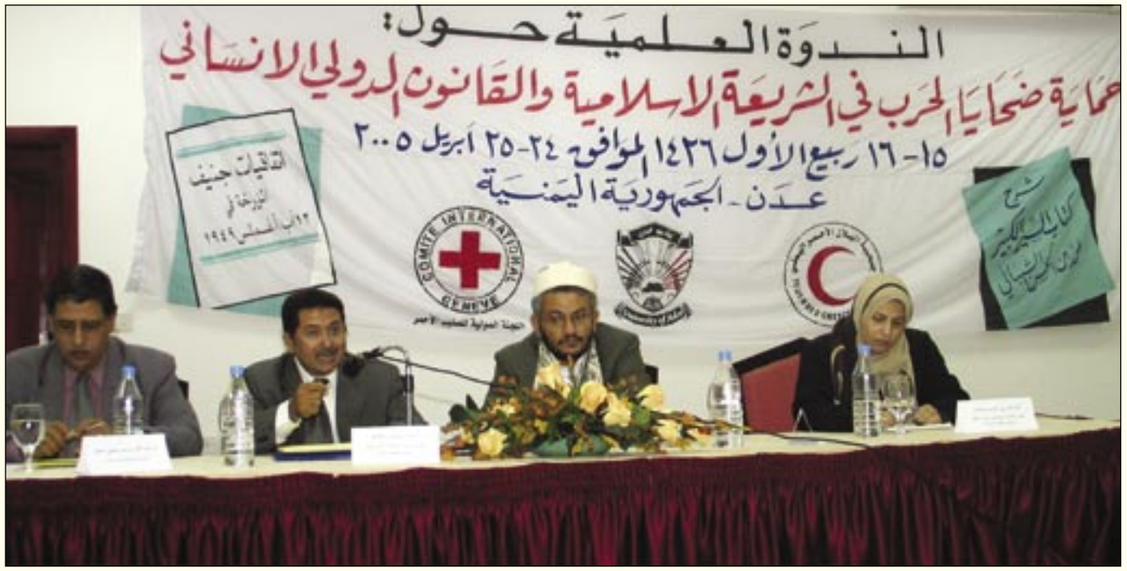

صنعاء :

ندوة حول الإسلام والقانون الدولي الإنساني

على مدار يومي 24 و25 أبريل/نيسان، عقدت اللجنة الدولية للصليب الأحمر بالتعاون مع جمعية الهلال الأحمر اليمني وجامعة عدن – اليمن ندوة حول حماية ضحايا الحرب في كل من الشريعة الإسلامية والقانون الدولي الإنساني، حضرها حوالي 40 من العلماء والأكاديميين وأعضاء البرلمان والشيوخ والرموز الدينية. وصرح **محمد الكباب**، رئيس جمعية الهلال الأحمر اليمني "**إن النزاعات الجارية التي شهدها القرن الحادي والعشرون تحتم التقاء العلماء والأكاديميين سويا لتبادل الآراء حول كيفية الحفاظ على الإنسانية وكفالة استقلالية العمل الإنساني في ضوء كل من الشريعة الإسلامية والقانون الدولي الإنساني**". كذلك أكد **الحبيب على زين العابدين الجفري**، أحد الدعاة الإسلاميين، على أهمية ترجمة المبادئ المنصوص عليها في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي الإنساني المتعلقة بحماية ضحايا الحرب إلى واقع ملموس. وأعرب القاضي **حمود الحطار**، عضو المحكمة العليا باليمن ورئيس المنظمة اليمنية لحقوق الإنسان، عن تقديره لما تقوم به اللجنة الدولية من أنشطة في اليمن تتسم بالحياد وعدم التحيز، خاصة في أوقات النزاع المسلح.

الدوحة :

الهلال الأحمر القطري يرعى عمليات ثقب القلب بالسودان

برعاية الهلال الأحمر القطري قام 3 من أطباء جراحة القلب وهم: د. محمد نعمان– استشاري قلب الأطفال وكهرباء القلب، د. **عبد الله عبد الكريم أشكناني**، كبير فني قسطرة القلب، د. **على المسلمي**، طبيب طوارئ وجراحة بإجراء عمليات ثقب القلب لعدد 13 مريضًا منهم 10 أطفال بالسودان. وقد تمت جميع العمليات بنجاح تام. صرح الأمين العام للهلال الأحمر القطري بأنه تم رسم استراتيجية، مع جهازه التنفيذي، تحدد ملامح العمل الإنساني في المراحل المقبلة، وذلك بالتركيز على الجوانب الصحية والتنمية البشرية وأيضا تدريب وتأهيل الأطباء والمرضى معا، من خلال التنسيق والتعاون مع مؤسسات الدولة المختلفة التي تهتم بتقديم الخدمات الإنسانية.

دارفور :

زيادة المساعدات في 2005

تعمل اللجنة الدولية للصليب الأحمر حاليًا على زيادة مساعداتها الغذائية لدارفور بنسبة 25٪ خلال بقية عام 2005. وقد اتُّخذ هذا القرار بعد ثلاث سنوات متتالية من انعدام الأمن عبر أنحاء المنطقة على النحو الذي منع جماعات بأسرها، من السكان المقيمين والبدو والنازحين، من زرع أراضيها أو التنقل إلى الأسواق أو سلوك طرق الهجرة بصحبة مواشيها. هذا ويتفاقم على نحو متزايد بؤس هذه الجماعات إذ يقترب «موسم الجوع» التقليدي بين فترات جني المحصول من ذروته بينما ليس في حوزتها سوى القليل من المخزون الغذائي إن توافر لها شيء منه على الإطلاق.

وفي الفترة ما بين أول يناير/كانون الثاني و30 أبريل/نيسان 2005 عملت اللجنة على تسليم 7720 طنًا من الغذاء في دارفور لما يصل إلى 330 ألفًا من السكان الريفيين والأشخاص النازحين داخليًا في 328 موقعًا، وتقديم مواد منزلية أساسية في دارفور لـ 79937 شخصًا (18325 من النازحين داخليًا في ثلاثة مخيّمات و 61612 من السكان المقيمين في 114 موقعًا، كما أقامت أو أصلحت و/أو طوّرت نظم ومحطات المياه في دارفور، حيث وفرت المياه الآمنة يوميًا لما يزيد على 320 ألف شخص، مائتا ألف من النازحين داخليًا في المخيّمات و 120 ألفًا من السكان المقيمين في 72 موقعًا. كذلك قامت بدعم ثمانية مرافق للرعاية الصحية في دارفور وقدّمت ثلاثين ألف استشارة علاجية (من بينها 13 ألفًا للنساء) و1300 استشارة سابقة على الولادة وتالية لها، و71 ألف عملية تطعيم، وجمعت 9177 رسالة صليب أحمر ووزّعت 7290 رسالة عبر أنحاء السودان، ودعمت تسعة مراكز لإعادة التأهيل البدني وورشًا أصغر على امتداد السودان؛ ووزّعت 427 طرفًا تعويضيًا (من بينها 33 لضحايا الألغام) و 405 جبائر و545 زوجًا من العكازات للمرضى السودانيين؛ وأمدت 173 مريضًا جديدًا بالأطراف التعويضية و198 بالجبائر.

الكويت :

الهلال الأحمر الكويتي

نظمت جمعية الهلال الأحمر الكويتي احتفالا بمناسبة 8 مايو/ آيار "**اليوم العالمي للحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر**". بدأ الاحتفال بكلمة السيد برجس حمود البرجس، رئيس الجمعية، دعا فيها: "**للسلم والسلام للبشرية أجمع دون اعتبار أو اهتمام خاص بجنسية أو ديانة معينة**"، وتحدث عن مرور 40 عاما على إنشاء جمعية الهلال الأحمر الكويتي، مؤكدًا على أهمية إبراز دور الكويت الإنساني والحضاري في تقديم المساعدات الإنسانية للمتضررين من الكوارث والحروب في مختلف أنحاء العالم. كان الضيوف من نزلاء دور الرعاية الاجتماعية من الأيتام والمعاقين وكبار السن في الكويت، بما أضفى لمسة إنسانية. أكد السيد مساعد العنزى، على أن الاحتفال هو دليل على تجديد العزم على العمل الإنساني من أجل المحتاجين والمستضعفين وهو بحر من العطاء الذي لا يعرف الكلل. شهدت الحفل الشيخة **أمثال الأحمد**، رئيس العمل التطوعي في الكويت، كذلك **دانيال فازناخت** و**فؤاد بوابه** ممثلين عن البعثة الإقليمية للجنة الدولية لشبه الجزيرة العربية بالكويت.

... ولقاءات مع وسائل الإعلام

في بداية مارس/ آذار، نظمت البعثة الإقليمية للجنة الدولية لشبه الجزيرة العربية في الكويت لقاءات مع عدد من ممثلي وسائل الإعلام المحلية في الكويت جرى خلالها تقديم عرض مبسط حول القانون الدولي الإنساني، إضافة إلى تطوير التعاون بين اللجنة الدولية، ووسائل الإعلام المختلفة من أجل مواجهة التحديات التي تواجه العمل الإنساني في كافة أنحاء العالم.

... ومذكرة تفاهم

انطلاقًا من مذكرة التفاهم التي تم توقيعها بين البعثة الإقليمية للجنة الدولية لشبه الجزيرة العربية بالكويت ومعهد الكويت للدراسات القضائية، والتي تم بموجبها اعتماد المعهد مركزًا إقليميًا لتدريب القضاة ووكلاء النيابة العرب على القانون الدولي الإنساني. عُقدت في شهر مارس/ آذار الدورة الإقليمية الأولى التي افتتحها **وزير العدل الكويتي** ونائب المفوض الإقليمي للبعثة الإقليمية في الكويت، حيث نُوقشت على مدار 5 أيام، محاور كثيرة كالتعريف بالقانون الدولي الإنساني، ومصطلحي قانون الحرب والحق في الحرب، إضافة إلى الفئات المشمولة بالقانون الدولي الإنساني وحماية اللاجئين والبنية والممتلكات الثقافية في زمن الحرب. شارك بالندوة 26 شخصًا بين قاض ووكيل نيابة يمثلون 15 دولة عربية منها الكويت، سوريا، البحرين، المغرب، الأردن، السودان، الجزائر، الإمارات، العراق وموريتانيا.

بعثات اللجنة الدولية للصليب الأحمر في المنطقة

القاهرة: 31 شارع جدة، حي المهندسين، القاهرة 12311
هاتف: 7619332/ 3379282 (202++) فاكس: 7618487 (202++)
البريد الإلكتروني: cairo.cai@icrc.org
مسؤول الإعلام: **جاسر الشاهد**

عمان: شارع أبو حامد الغزالي – الرقم البريدي 11191 صندوق بريد 9058
هاتف: 5688645/ 5688646 (9626++) فاكس: 5688649 (9626++)
البريد الإلكتروني: amman.amm@icrc.org
مسؤول الإعلام: **رباب رفاعي**

بغداد: حي النضال، محلة 103 زقاق 30، رقم الدار 27
هاتف: 7174751/ 7182309 (9641++) فاكس: 7171865 (9641++)
البريد الإلكتروني: bagdad.bag@icrc.org
مسؤول الإعلام: **رنا صيداني**

دمشق: أبو رمانة، ميدان الروضة، شارع مصر، بناية جرد، الدور الثالث صندوق بريد 3579
هاتف: 3310476/ 3339034(96311++) فاكس: 3310441 (96311++)
البريد الإلكتروني: damas.dam@icrc.org
مسؤول الإعلام: **إيريني هيربيت**

القدس: شارع النبي شعيب رقم (8) شيخ جراح، الرقم البريدي 91202
صندوق بريد: 20253
هاتف: 5828441/ 5828845/ 5828802 (9722++) فاكس: 5811375 (9722++)
البريد الإلكتروني: jerusalem.jer@icrc.org
مسؤول الإعلام: **ستيفن أندرسون**

بيروت: بناية عيتاني، شارع السادات، الحمرا، رأس بيروت
صندوق بريد 7188–11، رياض الصلح 2230 1107
هاتف: 739297/ 739298/ 739299(9611++) فاكس: 740087(9611++)
البريد الإلكتروني: beyrouth.bey@icrc.org
مسؤول الإعلام: **كريم المفتي**

الخرطوم: شارع رقم 33 منزل رقم 16 امتداد العمارات . صندوق بريد 1831
هاتف: 476464 (24911++) (خمس خطوط) فاكس: 467709 (24911++)
البريد الإلكتروني: khartoum.kha@icrc.org
مسؤول الإعلام: **بول كونيللي**

تونس: المندوبية الإقليمية بتونس، رواق البحيرة عمارة 9،
نهج بحيرة كنستنس 1053 مدرج 2 تونس:
هاتف: 960179/ 960154/ 960458 فاكس: 960156 (21671++)
البريد الإلكتروني: tunis.tun@icrc.org
مسؤول الإعلام: **محمد بن أحمد**

الجزائر: 18 شارع بوجمعة 16070 . المرادية . الجزائر
هاتف: 80 28 2160 / 21482482 (213++) فاكس: 80 28 2160 (213++)
مسؤول الإعلام: **صدري بن تشيكو**

صنعاء: شارع بغداد ص.ب 2267 شارع رقم 19، منزل رقم 20
هاتف: 4/ 467873 / 44 38 121 46 (9671++) فاكس: 75 78 46 (9671++)
البريد الإلكتروني: sanaa.san@icrc.org
مسؤول الإعلام: **رونالد اوفترينجر**

الكويت: البعثة الإقليمية لشبه الجزيرة العربية: الجابرية، قطعة 5، شارع رقم 3،
منزل رقم 32 صندوق بريد: 28078 – الصفاة 13141
هاتف: 5322061/ 5322062/ 5322098 (965++) فاكس: 5324598 (965++)
البريد الإلكتروني: koweit.kow@icrc.org
مسؤول الإعلام: **فؤاد بوابة**

بعثة الصومال: International Committee of the Red Cross
Somalia Delegation, Denis Pritt Road
P.O.Box 73226 - 00200 . Nairobi . Kenya
هاتف: 5/ 4/ 2723963 – 8/ 9/ 2713367 (25420++) فاكس: 2713731 254 20 ++
البريد الإلكتروني: somalie.sak@icrc.org
مسؤول الإعلام: **أنا هيتا كار**

طهران: كميته بين المللي صليب سرخ
تهران – بلوار آفريقا – خيابان تابآن شرقي – شماره 75
هاتف: 8785503 98++ فاكس: 98218783370 ++
البريد الإلكتروني: teheran.teh@icrc.org
مسؤول الإعلام: **لوكاس پيتريدس**

شظايا منغرسة عميقًا في النفس

د. محمد المخزنجي*

الرسم: أرداش**

(*) كاتب وقاصّ مصري عمل طبيبًا نفسيًا في مصر وفي «الاتحاد السوفيتي» السابق.

(**) فنان عراقي، عمل وعاش في العراق وفرنسا والولايات المتحدة. توفي عام 2000.

وقع الكهل "ليوثوان" من فوق الشجرة، فانكسرت عظمة الحوض الهش لديه، وأظهرت الأشعة شرخا في عظمة الفخذ. وكان لزاما أن يوضع في بنطال من الجبس سيبقيه رهن سريره مدة شهرين أو أكثر. وفي محبسه الجديد، الأبيض أدرك "ليوثوان" أنه ممنوع من الصعود إلى برج مراقبته، بل أبراج مراقبته، ومن ثم أخذ يصرخ محذرًا أن الأعداء قادمون، وأنه يعرف بتسللهم عبر الغابة ووسط أشجار الأرز العالية، ولابد من تحديد مواقعهم بدقة، وهذا لا يتم إلا من برج المراقبة. برج مراقبته، بل أبراج مراقبته والتي لم تكن غير أشجار الكستناء التي تبعد عن حقول القتل في بلاده آلاف الأميال. لا أتذكر من أي بلاد الهند الصينية كان من فيتنام أو لاوس أو كمبوديا، لا أتذكر، لكنه كان قادمًا من أحد هذه البلاد التي ظلت نيران الحرب فيها حامية في ذروة سنوات الحرب الباردة. قبض عليه الخصوم من الجانب الآخر وبتروا ذكورته. وفي هجوم مضاد أمكن تحريره هو وآخرين، ولم يكن ينزف من جرحه المخيف فقط، بل كان ينزف إضافة للدماء هلوسات وهذيانات مختلطة. وتبعًا لمقتضيات الحرب الباردة، كانت البقع الساخنة تحصي خسائرها ليعوضها هذا القطب أو ذاك من أقطاب العالم. وأحضروا "ليوثوان" إلى الاتحاد السوفيتي، ومن موسكو إلى بريفان إلى كييف، أجريت له عدة جراحات تعويضية، لكن شيئا في نفسه لم يمكن تعويضه، لهذا ظل يصرخ محذرًا من قدوم الأعداء، ولا يهدأ حتى ينفلت ويصعد إلى أول شجرة تصادفه، وفي هذا الشمال البارد المرتفع، لم تكن هناك غير أشجار الكستناء البريِّ، وهي تنفض أوراقها العريضة في الشتاء لتستقر عليها الثلوج التي تتحول مع طلعات الشمس الضعيفة، ثم غيابها الطويل إلى جليد، وهذا ما جعل أقدام ليوثوان تنزلق بشدة لينكسر حوضه وتنشرخ عظمة فخذه، وتتصاعد صرخاته مطالبا بالصعود إلى أبراج مراقبته المغطاة بالثلج والجليد. ولم يكن هناك من حل إلا مضاعفة جرعات "المطمئنات الكبرى".. لإخماد صرخاته.

يقع مستشفى بافلوف على قمة من قمم كييف السبع تسمى قمة "جاجارينا" نسبة إلى أول رائد فضاء في تاريخ البشرية، وهو مستشفى ضخم يتسع لثلاثة آلاف مريض، وقد بني على شرف الرسام الروسي الشهير "فروبل" الذي فقد عقله وسكن هذه القمة في أخريات أيامه، وعلى هذه القمة توجد كاتدرائية صغيرة رسم فروبل جدرانها وسقوفها بلوحات بارعة لمشاهد لاهوتية، لم تكن شخوصها إلا لزملائه في هذه المصحة من مرضى العقول. رسمهم فروبل ببراعة نادرة، لكنهم جميعًا كانوا من ذوي البشرة البيضاء، فلم تكن الحرب الباردة وضعت أوزارها بعد، ولم تكن ساحاتها المشتعلة تتأجج في بلاد السود والملونين البعيدة، وترسل للترميم في هذه المصحة، على هذه القمة من قمم الشمال، حيث كنت أدرس وأعمل، وتلفت نظري وجوه القادمين من بعيد، في المكان.. كما في الزمان.!

لقد انتهت الحرب العالمية الثانية منذ قرابة نصف قرن، ومع ذلك لم تغادر عقل العجوز أليكس كارشنكو، بل انغرست في تلافيف مخه مثل حربة ذات شعبتين، إحداهما تجعله يشتعل في هياج هوسي جزءا من العام، والأخرى تتركه منطفئا في خمود اكتئابي مميت فيما تبقى من العام. في هوسه ينطلق أليكس العجوز بسرعة عجيبة راكضا بظهره إلى الخلف، إلى الخلف إلى الخلف إلى الخلف، وهو يتصايح: "تقهقر.. إنهم يتقدمون، تقهقر، إنهم يتقدمون"، ولا يتوقف عن ركضه بظهره، أو تصايحه، إلا عندما يهوى متعثرًا ومتدهورا على منحدر التلة، أو يقع مغشيًا عليه من شدة الإعياء. وفي فترة اكتئابه ينخرط العجوز أليكس في بكاء محرق يجفف دموعه كلها ويجفف جسده المتهالك الممتنع عن الطعام والشراب، فينتحب بلا دموع وهو قابع في سريره يردد: "أعترف بالخيانة، أعترف بالخيانة". ولم يكن أليكس خائنا أبدا، لكنه عايش بمرارة وأمية غزاة مدينته وهم يتقدمون، وكانت إصابته الجسدية الجسيمة، وإصابته العقلية المواكبة لها، قد اكتملتا في هذه المواجهة.

كان النازيون يكتسحون تلال كييف السبعة، يمشطون أحياءها بتسارع في مواجهة مقاومة هشة لم يسعفها الوقت لتنظيم نفسها ورص صفوفها جيدا. وبين أفراد هذه المقاومة كان أليكس، وقعت قذيفة إلى جواره فانفجرت مرسلة إلى أحشائه بشظية خارقة حارقة، ومع لهيب النيران التي اشتعلت في أحشائه انصهر ذهن أليكس، وصدر من كيانه رد الفعل الذي تعرف عليه الأطباء النفسانيون جيدا من خلال تاريخ الحروب. إنه الهروب إلى الأمام بدلا من التراجع إلى الخلف. الذهاب إلى الأعداء لا الفرار منهم، وهو ما تسميه بعض مراجع الطب النفسي "الهلوسة الزور" وقع أليكس في الأسر، واندحر الغزو، وبرأت جراح أحشائه، لكن جراح نفسه كانت من الجسامة بحيث لم تجد لها مخرجا. وضعف في شيخوخته، بعد خمسين عاما.

لم يكن هروبه استسلاما للخصوم، لم يكن خيانة، لكن وهن الشيخوخة الذي يفتح للاكتئاب ألف باب ونافذة معتمة، جعله لا يبصر على مبعدة نصف قرن من الزمان إلا رجلا يهرب من المقاومة ليرتمي في أحضان الأعداء، ويقاوم هذا المشهد بنوبة هوس تعيد عرض المشهد بتقهقر سريع إلى الخلف وصيحات تحذيرية من تقدم الأعداء. وعندما تنكسر نوبة الهوس على منحدرات تلة جاجارينا ودرجات حرارة الخريف الآخذة في الابتداء، تبدأ نوبة الاكتئاب المعتمة مع عتمة نهارات الشتاء الشمالي الطويلة، ولا يرى نفسه، منذ نصف قرن، إلا خائنا ولا يستطيع أن يصدق أبدا أن الحرب نفسها هي الخائنة، خائنة للبشرية كلها.

وفي مواجهة عدم اقتناعه المميت لا تكون هناك غير مضادات الاكتئاب، وربما صدمات الكهرباء.

وعلى الأرجح .. الموت المبكر ■

العدد 857 من «المجلة الدولية»

حول قضايا الاحتجاز، سواء كان قانونيا أو غير قانوني، وكذلك التعذيب والانتهاكات، وأوضاع المحتجزين بصفة عامة صدر هذا العدد الخاص من **المجلة الدولية** الذي دشنت به أول إصدار لها بعد أن اتخذت شكلا جديدا.

أسهم في كتابة مواضيع العدد **ألفرد دي زاياس**، و**سيلفيا بوريللي**، و**إدوارد دي لابلاس**، و**مات بولارد**، و**آلان إيشيلمان**، و**هربرت كيلمان**، و**إيرين هيرمان**، و**دانييل بالمييري**، و**توني بفانر**، و**جان ماري هنكار**.

كما تضمن العدد لقاء صحفيا مع **ليش فاليسا**، الرئيس السابق لبولندا.

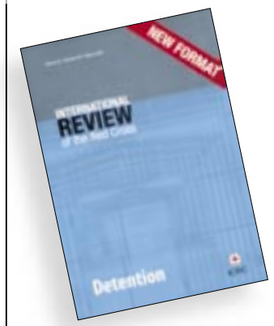

موارد

صدر العدد الثالث من نشرة "**موارد**" العربية، عن المكتب الإقليمي لمنظمة العفو الدولية. يضم العدد مواضيع تتناول "**التربية وحقوق الإنسان**"، و"**العنف ضد المرأة**"، كما يتضمن ملفا عن "**المدافعين عن حقوق الإنسان**"، إضافة إلى مواضيع أخرى متنوعة.

تطلب من المكتب الإقليمي لمنظمة العفو الدولية

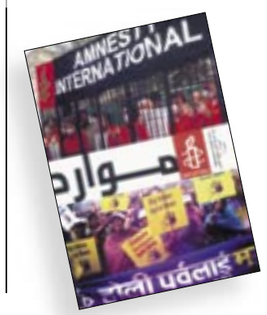

«الصليب الأحمر والهلال الأحمر»

صدر العدد الأول لعام 2005 من مجلة **الصليب الأحمر والهلال الأحمر**، وبه تغطية خاصة لأعمال الحركة الدولية لصالح ضحايا تسونامي، إضافة إلى مواضيع أخرى حول الهلال الأحمر الفلسطيني، وعالم بلا ألغام، والأوضاع الإنسانية في بيرو، والكفاح ضد الجفاف في كينيا، والقانون الدولي في الإسلام.

تصدر بالإنجليزية والفرنسية

تطلب من بعثات اللجنة الدولية والجمعيات الوطنية.

«الإنساني» المغاربية : مغرب عربي بلا ألغام

صدر العدد الثامن من مجلة Maghreb L'Humanitaire التي تصدرها بالفرنسية البعثة الإقليمية للجنة الدولية بشمال أفريقيا، وقد تضمن العدد ملفا حول الألغام ومخلفات الحرب غير المنفجرة في بلدان المغرب العربي، كما تضمن موضوعا حول الجهود الإنسانية التي يقوم بها الهلال الأحمر العراقي، وموضوعا آخر حول الهجرة غير الشرعية، إضافة إلى مقالات متنوعة أخرى حول الموقف الإنساني الراهن.

أنشطة اللجنة في إيران

أصدرت بعثة اللجنة الدولية في إيران نشرة وقائع أنشطتها التي تقوم بها في هذا البلد في المرحلة الراهنة، تضمنت النشرة تفصيلا لهذه الأنشطة على أصعدة الحماية والمساعدة والدبلوماسية الإنسانية.

صدرت بالفارسية.

تطلب من بعثة اللجنة في طهران.

أنشطة اللجنة في الصومال

صدر العدد الخاص من نشرة الوقائع المتعلقة بالفترة من يوليو/ تموز إلى ديسمبر/ كانون الأول 2004 حول أنشطة اللجنة الدولية للصليب الأحمر في الصومال.

تضمن العدد تفصيلا لكافة الأنشطة التي قامت بها البعثة العاملة في هذا البلد على أصعدة الحماية والمساعدة وبرامج إعادة التأهيل ونشر القانون الدولي الإنساني.

صدرت بالإنجليزية.

تطلب من بعثة اللجنة بالصومال.

AL-INSANI. 32. Summer 2005
8 th of May: Red Cross and Red Crescent Day

Contents

• A Tribute to Henry Dunant on His Anniversary
On the 8th of May, the whole world and the International Movement of the Red Cross and Red Crescent celebrate the anniversary of the birth of Henry Dunant founder of the movement. In this article, Al Insani provides a short review of his struggle for humanity.

• Charity in the Battlefield
An article by **Henry Dunant** included in his book "L'Avenir Sanglant" (the Bloody Future" describing his philosophy which aimed at alleviating the suffering caused by wars.

• History of Humanitarian Work in Photos
Since the founding of the ICRC, the nature of conflicts has changed all over the world. Humanitarian work has had to be more present to intervene on behalf of war victims. On these pages, there is a photo gallery showing the presence of humanitarian work in conflicts since the second half of the 19th Century.

• Arab National Societies on the 8th of May
On the International Red Cross and Red Crescent Movement Day, officials at national societies in Arab countries express their views on the current and future situation of the Movement..

• Twenty-Five Years in Iraq
A brief description of what the ICRC has done for the Iraqi people since it started working in Iraq in 1980.

• Reflections on Baghdad
Egyptian feminist activist, gives her reflections on a trip she recently made to Baghdad.
By: **Azza Kamel**

• Two Harsh Years in the History of Humanitarian Work
Since the end of major hostilities in Iraq in 2003, humanitarian work has been exposed to pressures which hampered it and made its continuation very difficult in many cases. Here is a presentation of the situation faced by humanitarian work over the past two years.
By: **Mohamed Seif**

• Limbs manufacturing: Hope, and Smile at Mukalla
By: **Allawy Ben Sameet**

• Sudan: The International Criminal Court
Interview with International Law expert, Prof. **Mhd. Aziz Shukry**, on UN Security Council resolution 1593.

• Medicine and War: From the Medicine of the Military to the Militarization of Medicine
A study on the relationship between Medicine and war.
By: Dr. **Ibrahim El-Bagalaty**

• A Crack in a Glass Barrier
This article describes the experience of humanitarian workers, their intense feelings towards the victims, and their views on the ability of existing concepts to address humanitarian plights.
By: **Khaled Mansour**

• The Bread of Death
A poem by **Andrée Chedid** from her collection "Rituals of Violence"

• International Customary Law in the Arab Region
By: Dr. **Amuer Zamaly**

• Apples of Al-Sham

• Around the World

• Splinters Deeply Pierced Into the Soul
By: Dr. **Mohamed El Makhzangy**

• Publications

Editorial

8 May and Human Dignity

"It is with pride that we celebrate the individual commitment of every volunteer everywhere on this special day. Their bravery and dedication is a moving expression of our Movement's commitment to "protect human dignity".

The previous quotation is from a message by the presidents of the ICRC and the International Federation of Red Cross and Red Crescent Societies on the World Red Cross and Red Crescent Day.

Those who follow humanitarian affairs are aware that the protection of human dignity is at the crux of all humanitarian efforts and has always been so. But the quest to protect human dignity is getting unfortunately harder by the day in view of the violations to which humanity is being subjected in wars and conflicts and with the increasing numbers situations in which human dignity comes under various types of assault.

The protection of human dignity in conflicts and wars requires a wide range of provisions and guarantees that allow neutral and independent humanitarian efforts to proceed and ensure continued humanitarian assistance to all victims without discrimination. In order for this to happen, all parties concerned need to believe in the importance of humanitarian work and be willing to uphold and support it.

For sometime now, difficulties have emerged in the course of humanitarian work, difficulties that may limit the scope of humanitarian help and obstruct its path. Such difficulties have grown worse due to the polarisation on the international scene within the course of the war on terror.

In the Middle East, for instance, these difficulties have virtually driven out all independent humanitarian work – the work that ensures protection of all victims without discrimination – from the Iraqi scene, although it is common knowledge that Iraqis of all backgrounds suffer from violations and are in dire need of humanitarian efforts.

This is a problem that can only be solved through the cooperation of all concerned parties. The presence of humanitarian efforts in a conflict zone is not just about protecting the weak, but also about sending a significant message. The presence of neutral humanitarian assistance helps alleviate chaos, inspire hope, and ensure the implementation of the law. The presence of humanitarian efforts is a reminder to all parties concerned that war has limits and rules and that these limits and rules must not be breached under any condition.

The main concern of Henry Dunant and his colleagues who first created the Red Cross was to establish a set of lofty principles and get everyone to agree to them and pledge to implement them as a means of alleviating the ordeal that haunts human life - the ordeal of war.

The main condition for implementing these principles is the presence of a neutral and independent third party – a party that is not involved in the conflict – to provide help to everyone without exception. The Red Cross is one such party, and it continues to serve as a symbol of the good that is common to all humanity.

To go back to the quotation mentioned at the beginning of this editorial, and on a different note from that of wars and man-made disasters, the International Red Cross and Red Crescent Movement is proud of the achievement it has made in the face of natural disasters throughout the year. This achievement would not have been possible without the individual commitment of our many volunteers who embody human goodness.

Will the desire for goodness win once more? Will humanity once again pave the road to independent humanitarian work, so that we may continue to perform our tasks in Iraq and other areas of conflict around the globe?

"Al-Insani"